الفداء

تأليف

الأب فيليب الثالث

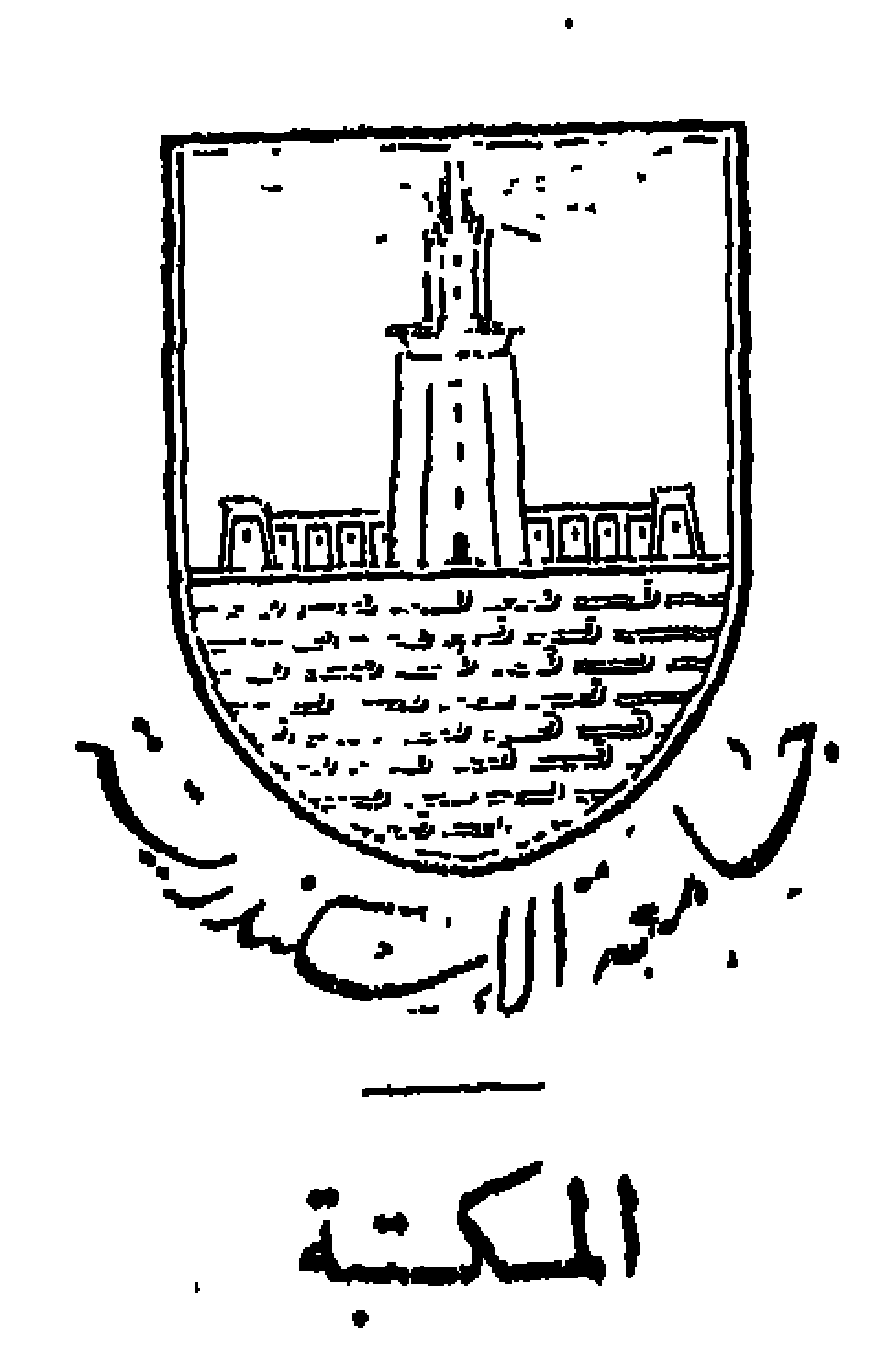
تعريب

الأب لويس أبادير

منشورات المعهد

المعادى




جامعة الاسكندرية

الفداء

الأب فيليب التالشي

تعريب

الأب لويس أبادير

منشورات المعهد [illegible]
المعادي

†

نصرّح بطبعه

إسطفانوس الأول
بطريرك الإسكندرية وسائر الكرازة المرقسية

يناير ١٩٦٤

فهرست الكتاب

الفصل الثالث :

الوفاء بالإنابة : أولية الرحمة

صفحة

الفصل الرابع :

الوفاء بالإنابة : العدل الرحيم

الفصل الخامس :

الاستحقاق — الفداء — الذبيحة

تمهيد

لا يقصد كاتب هذا السفر « الفداء » إلاّ أن يكون الصدى الأمين الذى يردّد صوت معلمه القديس توما الأكوينى . فما من لاهوتى استطاع أن ينفذ إلى سر الفداء فى عمق ودقة ووضوح بقدر ما نفذ إليه القديس توما . ولكن مع ذلك قليلون هم الذين يلمّون بتعليمه .

لقد ذهب شسترتون Chesterton إلى أن القديس توما كانت له المقدرة على خوض الأمور الإلهية العميقة لأنه كان متفائلاً يؤمن بالحياة. والأحق أن يقال فيه : « إنه قديس الخالق ». فما كتبه عن الفادى هو من أحسن ما أملته نفسه وسطرته يده . وما أشبه الفداء بالخلق ! ... أوَليس أن الفداء هو الخلقة الجديدة التى تعرب عن حب الله لنا ؟ .. بل قد يتفوّق الفداء على الخلقة الأولى جمالاً وحبًّا وسخاءً . فقد قال له المجد : « أتيت لتكون لهم الحياة وتكون لهم أوفر » وقال أيضاً : « بهذا يتمجد أبى أن تأتوا بثمر كثير » .

وقد عبّر الفنان العظيم إنجيلكو بريشته ، فى لوحته الجميلة الخالدة التى تمثل صلب المسيح ، عن تعمق القديس توما فى هذا السر . فرسم عن يمين المصلوب صورةً للقديس فرنسيس الأسيزى وهو يتأمل فى حب الجنب المطعون بالحربة . ورسم عن يسار المصلوب صورة للقديس توما

الأكوينى ممسكاً بالقلم متهيئاً للكتابة متأملاً فى عمق وجه الفادى .

فهذه المقارنة الفنية بين فقير أسيز الذى انطبعت على جسمه جروحات المسيح وبين فيلسوف جامعة باريس ، توحى بفكرة غنية خصبة .

ولقد أوضح شسترتون هذه الفكرة بقوله :

إن عقيدة سر الفداء التى نمت وازدهرت فى الجيل الثالث عشر تحت التأثير الدومنيكانى والفرنسيسكانى لهى من أهم العقائد وقانون من أبرز قوانين الإيمان . فإلى جانب رجل الطبيعة الجميلة الخلابة . يقف رجل آخر ، من نوع آخر ، هو رجل المكتب والقلم والسكون . والرجلان كلاهما ، بقلب واحد ، وعقل واحد ، « أنزلا الله على الأرض ».

غير أن كثيرين من الكتاب والوعاظ المسيحيين — ويا للأسف — ابتعدوا عن المحور المنظور لسر الصليب أى محور « الحب الرحيم » .. فقد رسموا الفادى بصورة غير صحيحة وبهذا شوهوا وجهه الحقيقى . وكان لهذا التصوير المشوه أثر بالغ فى نفوس كثيرة ما زالت خائفة مرتجفة أمام المصلوب . وهكذا أصبحت تلك النفوس غير قادرة على تلمس الثقة بين هذين القطبين المخيفين : هلع الابن وجزعه ، وغضب الآب وسخطه . أوقل : القلق القاتم من جانب الابن ، والقسوة سفاكة الدماء من جانب الآب .

فمن واجبنا الآن أن نعيد إلى هذه النفوس الخائفة المضطربة ، صورة الفادى الصحيحة كما عرفها القديس توما على ضوء نصوص الكتاب المقدس ونصوص الآباء .

هذا — ولن يجد القارئ فى هذا الكتيب الصغير الذى نقدمه له ،

خلاصة موجزة لمقال سر الفداء نعالج فيه على مستوى علمي معظم مسائله، وإنما يتضمن هذا الكتيب مجموعة من الأفكار والنصوص ركزتها حول هذه الفكرة : « المسيح ذبيحة الحب الرحيم » .

وهذا العنوان إنما يدل خير دلالة على الموضوع الذى أردت معالجته فى مدرسة القديس توما .

وقد قسمنا الموضوع إلى خمسة فصول .

الفصل الأول : يتضمن مختارات من النصوص المشوهة لسر الفداء .

فيتبين من ذلك أن موقف الآب من ابنه البديل لم يكن موقف المنتقم العادل ولا الغاضب الظالم . كما أن الابن حين رضى أن يقف موقف البديل لم يشعر فى نفسه سخط الآب عليه ولا عقاب الهالكين .

الفصل الثانى : يعطى فكرة إجمالية عن سر الفداء منذ الخطيئة الأصلية حتى صعود المسيح إلى السماء .

الفصل الثالث : يبين أن الوفاء البدلى هو السمة البارزة فى سر الفداء. وأنه يزيد على خطايا الجنس البشرى كما قال بولس الرسول : « حيث كثرت الخطيئة هناك طفحت العقمة » .

وأن الوفاء البدلى ليس من صنع العدل الانتقامى وإنما هو دليل الحب.

الفصل الرابع : يظهر أن الوفاء البدلى ينطوى حقيقة على العدل . العدل الممزوج بالرحمة والحنان .

الفصل الخامس : يتناول — بالإضافة إلى مظهر الوفاء البدلى — مظاهر أخرى من سر الفداء كالتقدمة الاستحقاقية . والفدية . والذبيحة

فى الفصول الثلاثة الأخيرة تحليل لا هوتى مفصل عن سفك الدم .

هذا هو الإطار اللاهوتى لعقيدة سر الفداء .

وقد ختمنا أخيراً البحث بكلمة وجيزة عن المحبة داخل الجسم السرى . فلن يستطيع أحد أن يعرف مقدار محبة المسيح لنا إلاّ بالمحبة . فثمن الحب لن يكون غير الحب على حد قول القديس يوحنا الصليبى .

إذن فقد وجب علينا أن نتعاون فى أمر خلاصنا الشخصى وخلاص إخوتنا فى محبة الله وصبر المسيح . وهذا هو جواب الحب على الحب .

إن أهم عنصر من عناصر عقيدتنا أن خلاصنا لم يتم إلاّ بصليب المسيح حتى أصبح الصليب راية المسيحية .

فبعد أن كان الصليب أداة عذاب ورمز الهوان ، أصبح بعد موت المسيح عليه ، مصدر قوة وعنوان الكرامة : « إن الصليب عند الهالكين جهالة وأما عندنا نحن المخلصين فهو قوة الله » .

فلن يستطيع أى مسيحى أن ينفذ إلى أعماق سر المسيح الفادى إلا بالمحبة . وهكذا ندرك هنا مدى كلمة القديس يوحنا وقوتها : « من لا يحب لا يعرف الله . لأن الله محبة » .

وأخيراً إن سر المسيح المصلوب يتطلب منا : أن نصمت فى تواضع ونسجد فى حب .

الفصل الأول

مرايا مشوهة

نريد فى هذا الفصل أن نصحح فكرة خاطئة مشوهة لتعليم سر الفداء . وقوام هذه الفكرة الخاطئة أن ما قاساه المسيح على الصليب من آلام مبرحة كان سببه « العدل الانتقامى » . فنجم عن هذا الخطأ نتيجتان فاسدتان .

إحداهما : كان الله الآب ينظر إلى ابنه بعين حمراء مريداً الانتقام منه . وهكذا ظهر الله بمظهر السفاح الذى يطرب لمرأى الدم .

والثانية : كان الابن وهو على الصليب يقاسى عقاباً مماثلاً — فى نوعه وشدته — عقاب الهالكين فى جهنم .

إن هذا التعليم هو بلا شك تعليم باطل . لأنه من الظلم بل إنه من الإجرام أن يعاقب البرىء ويطلق الأثيم . فالمسيح لم يجن ذنباً ولم يقترف إثماً . إنه برىء . بل هو البراءة نفسها .

إذن فالمسيح لم يذق مرارة الانتقام وقسوة الآب ولم يشعر بأى عقاب من عقاب الهالكين فى جهنم .

— وسوف نقدم مختارات من النصوص المشوهة لوجه الفادى . وفى

وسعنا أن نقدم — مع الأسف — مزيداً من هذه النماذج فى غير عناء كبير ولكننا سنكتفى هنا بالقدر البسيط .

لهذا التعليم المشوه أنصار عديدون نخص بالذكر : بوسويه ، بوردالو ، ماسيون ، وغيرهم .

وهذا التعليم المشوه قد انعكس أثره فى كثير من المؤلفات التى تزخر بها الآن مكتبات الرهبان والكنائس والمعاهد الإكليريكية و المؤسسات العلمية .

أما مؤلفات ريفيير Rivière وريشارد Ric5ard التى تخالف هذا التعليم الباطل فقد كان لها حقاً أثر كبير فى نفوس عديدة إلا أنها لم تكن كافية فى تبديد هذا الخطأ الداهم . فالأمر إنما يحتاج إلى مزيد من الجهود .

ولكن قد يكون من التعسف أن نحكم على هذه المؤلفات برمتها من مجرد الحكم على هذه المقتطفات وحدها . فقد يمكن أن نعثر على فكرة خاطئة متخفية وسط حقائق تجود بها مؤلفات ممتازة من جوانب أخرى .

إلا أن الخطأ مع ذلك هو الخطأ حتى وإن كان كامناً بين الحقائق الصافية . لا بل الخطأ المتخفى وسط الحقائق هو أخطر على النفوس مما لو كان مصحوباً بجملة من الأخطاء الأخرى .

أجل إن هذه النصوص المختارة — وإن كانت تتفاوت فى درجات التشويه ، فهى على كل حال تشكل خطراً داهماً ضد عقيدة الفداء . أما قدرتها على الخطر فيقوم فى جعل المسيح موضع انتقام الآب فى فترة الآلام .

فهذا التعليم إنما يشوه وجه الوحى فى نقطة جوهرية . وليس أدل من المقارنة بين هذا التعليم المشوه وتعليم القديس توما الخاص بسر الفداء . فإن الأول يعرب عن الهلع والتشاؤم . أما تعليم القديس توما فيعرب عن الصفاء والتفاؤل والرصانة والاتزان . ويتجلى فيه علامات « الحب الرحيم ».

فإن المخلص ، برغم الحزن القاتل الذى استولى على قلبه فى بستان الزيتون ، لم يشعر فى نفسه ولا حتى فى إحساسه البشرى بأن الآب قد تركه أو تخلى عنه . فالآب لا يمكن قط أن يكون مصدر ألم للمسيح . فهو رب رحمة لا نقمة . وهو رب محبة لا بغضاء . وعلى هذا يقول القديس يوحنا فى رسالته : « إن الله محبة » (١ يوحنا ٤ : ٨) . فلم يقل الرسول إن الله عدل أو انتقام . ولكن ليس معنى ذلك أنه لم يكن للعدل نصيب فى عمل الفداء ؟ فإننا نتمسك أشد التمسك بوجود عنصر العدل فى سر الفداء . وإنما علينا أن نحسن تفهم التعريف الحقيقى للعدل .

هناك عدل وعدل . يوجد عدل التبادل وعدل التوزيع . وينبغى ألا نخلط بينهما .

١ — **فالعدل التبادلى** : هو وفاء الفرد للفرد حقه وفاء متوازناً لقيمة الشيء . هو عدل تجارى فيه أخذ وعطاء : « هات وخذ » . مثلا : إذا اشتريت ثوباً فعليك أن تدفع قيمته غير منقوصة . فهذا النوع من العدل لا يمكن أن يتحقق بحصر المعنى فى علاقة الله بخليقته ولا فى صلة الخليقة بالله . لماذا ؟ لأن الله — الكائن الأسمى ومصدر كل خير — لا ينظر فى عطاياه إلى ما نحن عليه من صلاح أو استحقاق . « أى

شيء لك ولم تأخذه أيها الإنسان » . (١كور ٤ : ٧) .

وللقديس أغسطين تعبير قوى جميل فى ذلك . فيقول : « إن الله حين يكلل استحقاقات القديسين فإنما يكلل مواهبه » .

ورب سائل يسأل :

إذا كان كل شيء صادراً عن الله . فماذا نقول فى الخطيئة ؟ الخطيئة هى منا وفينا . إنها بلبلة وحرمان وعدم كيان . هى إهانة موجهة إلى الله وإلى عنايته . الخطيئة تتجنى على الله . ولكنها لا تؤذيه . إنها سهم يرشقه الإنسان قصداً ولكنها سهم لا يبلغ غايته . فالخطيئة لا تمس كمالات الله . إن الله لا يمس . غير أن الخطيئة تمس الكلمة المتجسد فى نفسه وقلبه .

٢ ـ **أما العدل التوزيعى** : فهو توزيع الخيرات توزيعاً مناسباً يراعى فيه المصلحة العامة واختلاف الاستحقاقات والاستعدادات والمقدرات . فالرئيس العادل فى حكمه وإدارته هو الذى يعامل مرؤوسيه ـ كل مرؤوسيه ـ على حسب استحقاق كل واحد منهم . فيسند أكبر المناصب إلى من هم أكثر كفاية دون تمييز أو محاباة للوجوه .

فهذا العدل التوزيعى يتجلى ـ بطريقة التماثل ـ فى كل أعمال الله . يقوده فى ذلك قانون حكمته الأزلية وحبه اللامتناهى .

٣ ـ ومن العدل التوزيعى يتفرع العدل الانتقامى أو التأديبى :

وهو معاقبة المجرمين ـ لا الأبرياء ـ عقاباً يتناسب مع جرمهم تأديباً لهم. فيجب من ثم إقصاء العدل الانتقامى عن الآب لدى تعامله مع الابن حتى فى فترة آلامه . فليس الآب بظالم يطرب لمرأى الدماء . وأية دماء .

دماء ابنه الوحيد ! ! .

وهنا يقول قائل :

ولكن ألم يأخذ العدل الإلهى مجراه فى يسوع حين تألم وجلد بالسياط وعلق على الصليب ؟ الرد : بالإيجاب . أما الاختلاف فقائم فقط فى شكل العدل . فالعدل هنا لم يكن انتقامياً بل كان كله ممزوجاً بالرحمة والمحبة والحنان . وسوف نتناول شرح ذلك فيما بعد تبعاً لتعليم القديس توما .

فالمسيح تألم ومات من أجل خطايا الجنس البشرى وليس من أجل خطايا شخصية . لقد كان المسيح حقاً ذبيحة تكفير من أجل خطايانا. غير أنه كان ذبيحة الحب الرحيم لا العدل الانتقامى . فقد شاء الله الابن مع الله الآب أن يعطى الناس أمثولة خالدة فى المحبة تبقى على الدهر . وتحملهم على مبادلة الله المحبة . وهكذا يصبح فى مقدور كل فردٍ منا أن يردد مع باسكال : « إنى أحب الصليب بسبب يسوع المصلوب عليه وأحب يسوع بسبب الصليب الذى احتمله من أجلى » .

أولا ــ الإنابة فى القصاص

إن إنابة المسيح عن الخطاة وتحمله الآلام من أجل خطايانا بموجب شريعة العدل الانتقامى . يسمّى فى علم اللاهوت « بالإنابة فى القصاص ». وقد علّم مارتن لوثر بذلك فى تفسيره لرسالة القديس بولس إلى أهل غلاطية زاعماً أن المسيح صار خاطئاً حقيقياً حين حمل خطايانا فأصدر الله ضده

حكمه العادل . فقاسى من جراء ذلك عقاب الموت حتى يخلصنا . وقد جاء بالحرف الواحد فى تفسيره للرسالة المذكورة :

« إن المسيح برىء ليست فيه خطيئة — فهو حمل الله الذى لا عيب فيه ولا لوم . ولكنه حين رضى أن يحمل خطايا العالم تلطخت براءته . فالآثام التى اقترفتها أنا واقترفتها أنت أصبحت كلها خطايا المسيح ، خطاياه الشخصية . . . وكان من المحتم أن يكون كذلك وإلا هلكنا جميعاً هلاكاً أبدياً . . . غير أن بعض السفسطائيين قد طمسوا الحقيقة التى علم بها بولس الرسول والأنبياء . فقد كانت شريعة موسى تقضى على كل لص أن يعلق على الصليب . ووفقاً لهذه الشريعة كان يتحتم على المسيح أن يصلب هو أيضاً . لأنه رضى أن ينوب عن الخاطئ واللص بل رضى أن ينوب عن كل الخطأة وكل اللصوص . لقد صار لعنة من أجلنا لا من أجله كما قال بولس الرسول » .

ومما يؤسف عليه — أن قضية الإنابة فى تحمل القصاص قد فهمها بالمعنى السابق كثيرون من الكتاب الكاثوليك .

فقد قال شاردون Chardon :

« كلما تأملت فى تقدمة يسوع فى الهيكل ، وكلما سمعت النبوءات التى نطق بها سمعان الشيخ وحنة النبية أثار ذلك كله الإشفاق فى نفسى . وأحسست أن كلمات سمعان إنما تحمل رفضاً للذبيحة التى تقدمت بها مريم . وكأن الله يقول لها : أيتها الأم خذى وحيدك وانصرفى من هنا . فرأس ابنك ما زال صغير الحجم لا يتسع الآن لإكليل الشوك الذى

أعددته له . وكتفه لا تقدر الآن على حمل الصليب الثقيل . ودماؤه التى تجرى فى عروقه غير كافية الآن لتونيه العدل مطاليبه الكاملة . ويداه رقيقتان ناعمتان لا تتحملان الآن دق المسامير الغليظة . وذراعاه وساقاه قصيرة الأبعاد لا تتناسب الآن مع طول الصليب وعرضه . وجسمه النضر الصغير لا يتحمل الآن ضربات السياط العديدة التى ستمزق لحمه ...

فيا أيتها الأم ، خذى الآن رضيعك وانصرفى به . وحين يكبر ويصير رجلاً ، تعودين به ثانية وتقدمينه إلىّ وحينذاك أوقع عليه عدالتى التامة » .

بوسويه

«لقد كان بريئاً فى نظر الناس . . مجرماً فى نظر الله الآب . لقد حمل ثقل ما اقترف البشر من آثام وسيئات . . . فطأطئ . طأطئ الرأس أيها المسيح . لقد رضيت أن تتكفل بنا . لقد رضيت أن تحمل آثامنا. إذن فلابدّ من أن تتحمل عواقبها وأثقالها وأن تدفع الديْن كله . فلا إبراء ولا رَحمة . . .

لقد أسلمه يهوذا بدافع المنفعة . أما الله الآب فقد أسلمه بدافع العدل وطلب الثأر ! » .

ماسيون Massiloen

إن نفس المسيح التى تفوق كل الأرواح السماوية طهراً وقداسة قد تحولت فى النزع الأخير إلى نفس ملوثة بكل ألوان الآثام . . . إن الله الآب يريد أن يثأر من ابنه المثقل بآثامنا وأن يمحقه محقاً » .

مونسابريه Monsabré

«لقد عثر الله في المسيح على ما كان يبحث عنه دون جدوى في سائر الذبائح . لقد عثر في المسيح على الخطيئة التي يجب معاقبتها . وقد انتصبت بكل بشاعتها أمام القداسة الإلهية . لقد صار المسيح لعنة بدلاً منا . إنه البديل عن الخطأة في كل مكان وكل زمان . إنه إنسان الإنسانية كلها .

فما لبث أن ظهر هذا الإنسان حتى نسي العدل الإلهي قطيع البشر التافه الذي لم ير فيه غير هذا الإنسان الغريب الشرير . فهم ينقض عليه ويبطش به . . . ولكن مهلا ! هل نسيت أيها الآب أنه ابنك ؟ فالرحمة . الرحمة ! — لا . لا إنه الخطيئة التي يجب معاقبتها . إنه اللعنة التي تجسدت فيه » .

هولست d'Hulsot

« لقد أخذ العدل يجري حكمه وسلطانه عليه . وأصبحت الرحمة مقيدة مغلولة عاجزة عن العمل . إنه سر المبادلة . سر قيام البريء بدل الأثيم . وهو سر عميق لا آخر لعمقه ! » .

ثانياً — غضبة الآب

إن كالفين يسلم هو أيضاً بقضية « الإنابة في القصاص » فيقول :

« إن الصفح هو مجرد مبادلة في العقاب . فيرفع عنا ويوضع على عاتق المسيح . وينبغي ألا ننسى ذلك حتى نتحرر من الخوف الدائم ،

والقلق المتواصل . لقد احتمل الابن وحده بالنيابة عنا ثقل ما اقترفناه من آثام فانتقم الله منه انتقاماً عادلاً . ولو أن المسيح لم يمت إلا موت الجسد فقط لما كنا خلصنا . فقد كان محتماً عليه بالإضافة إلى آلام الجسد أن يستشعر قسوة الانتقام الإلهى وغضبه فيوفى بذلك مطالب العدل الإلهى » .

وقد يتبين من خلال هذا النص وجود عداوة بين الآب والابن . وطلب ثأر وانتقام . فهذا تعليم مشوه قطعاً لعقيدة الفداء . ويا للأسف نحن نجد هذا التعليم عند بعض الكتاب الكاثوليك .

نويت Nouet

« لقد ألقى المسيح نظرة على أبيه فوجده يرشقه بعين غاضبة تملأ القلب ذعراً . ركع أمامه كمجرم أثيم محاولاً التخفيف من وطأة حكم الموت المرتقب . لقد جثا على ركبتيه متذللاً حتى يخفف من حدة غضب أبيه وسخطه عليه ولكنه وجده قاسياً لا يرحم ولا يلين .

أدرك المسيح أن حكم الموت سينفذ فيه حتماً ، ورأى الشرور تسعى إليه من كل صوب فاستولى على قلبه الهلع والجزع . وظل مشدوداً بين الخوف والأمل تتجاذبه قوتان قوة : فيها قدرة وقوة فيها ضعف ، فهو مرة يحاول الفرار من الموت الزؤام ، ومرة يسعى إليه فى عزم وتصميم . مرة يملأ قلبه رعباً غضب الآب وقسوته . ومرة ينظر إلى المحنة فى خضوع ورضى . إنه يخشى الألم حيناً وحيناً يرضى به ويرغب فيه . لقد ظل يغالب ويقاوم بكل قواه

حتى سقط على الأرض مغشياً عليه يتلوى من شدة الألم ، ونزف الدم ، وقسوة الصراع . كل شيء له استشهاد حتى ذاته أيضاً .

بوسويه Bossuet

« إن وجه الرب على صانعى الشر » (مز ٣٣) معناه أن الله يرشق الشرير بنظرات الغضب . وعلى هذا فقد رشق ابنه بهذه النظرات التى أثارت فى قلبه الرعب والفزع بدلاً من السلام والأمان .

نظر إليه نظرته إلى خاطئ شرير . وسعى إليه بكل ما لديه من أسلحة العدل والانتقام .

لقد انصرف الله عنه . أما نحن فقد فتح لنا ذراعيه .

نظر إليه فى غضب وغيظ . أما نحن فنظر إلينا فى رحمة وعطف .

لقد شعر المسيح وهو معلق على الصليب بازدراء الآب ومرارة الغضب وقسوة العدل .

دعاه فلم يستجب له . استغاث فلم يعطف عليه . تألم فلم يشفق عليه. هذا ما حدث فوق الصليب . فمن يستطيع أن يسبر غور هذا السر الرهيب؟ إنه بحر عريض لا حد لعرضه . عميق لا آخر لعمقه » .

ماسوييه Massouillé

يخيل إلىّ أن المسيح وهو معلق على الصليب إنما يشكو إلى أبيه قسوة الغضب قائلا : أيها الآب الأزلى ، أنت تعرف أنى فى بستان الزيتون كنت أتضرع إليك بكل تواضع وخضوع . لقد سألتك أن تجنبنى الكأس

المرة ، فرفضت وصرفت وجهك عنى ولم تقبل صلاتى . فليكن . . .
وإنما الذى يؤلمنى ويؤذينى أنك ترشقنى بعين الغضب والسخط .
أيها الآب الأزلى ، ما هو سبب تخليتك عن ابنك الوحيد ؟ .

ويزمان Wisman

«إن ما يثقل نفس المسيح همًّا ويملأ قلبه حزناً ليس هو خوفه من أن يساق كحمل إلى الذبح ، إنما هو خشيته من أن يطرد من أمام وجه أبيه مثقلاً بآثام العالم ككبش الفداء . لأنه ما لبث أن حمل هذا العبء الثقيل حتى صار موضع غضب أبيه » .

ثالثاً ــ قصاص الجحيم

انتشر فى عهد كالفين رأيان فى تفسير هذا البند من قانون الإيمان : « ونزل إلى الجحيم » .

أحدهما يقول بأن المقصود بهذه العبارة هو « دفن المسيح فى القبر » أى « نزل إلى القبر » . والآخر يعلم بأن العبارة إنما تفيد نزول المسيح إلى الليمبس أى « حضن إبراهيم » حسب لغة الكتاب . وذلك لكى يعلن لنفوس الآباء أن الفداء قد تمّ .

أما كالفين فيرفض كلا الرأيين زاعماً أن الرأى الأول هو من المترادفات الزائدة . والثانى من الخرافات الباطلة . ثم يعرض شرحه فيقول :

« نزل إلى الجحيم » : المقصود بهذه العبارة أن المسيح قاسى من أجلنا عذابات جهنم . فلو أن المسيح مات موتاً جسدياً فقط لجرى الفداء على أجسادنا دون أرواحنا . فكان على المسيح إذن أن يقاسى عذابات جهنم ليفتدى نفوسنا أيضاً . لأن الناس أجساد وأرواح . إذن فلا غرابة أن يذوق المسيح حكم الموت الأبدى الذى يقع على المجرمين الأثمة » .

وقد نادى بعض الكتاب والوعاظ الكاثوليك – ياللأسف – بمثل هذا التعليم . كما أن البعض يقرر بأن المسيح حرم من المشاهدة الطوباوية فترة من الزمن وأنه تجرع كذلك مرارة اليأس والقنوط خلال آلامه .

بوردالو Bourdaloue :

«إن الله لا يكتفى بضربه ولكنه يهجره ويتركه وسط العذابات المريرة . (إلهى إلهى لماذا تركتنى) . فهذا الترك الإلهى هو عقاب الحرمان من المشاهدة الطوباوية . إنه يتحتم على يسوع أن يذوق مرارة هذا الحرمان كما قال بولس الرسول » .

جرو Grou :

« لقد ترك الله الآب يسوع ابنه فى بستان الزيتون . ولم ير بعد فيه سوى المجرم الأثيم الذى يحمل على رأسه كافة خطايا البشر . . . إنه يستحق اللعنة والعقاب . حقاً لقد ذاق المسيح مرارة الحرمان أكثر من كل الخطأة والشياطين » .

فوارد Fouard :

« فى هذه الساعة أوصدت السماء أبوابها دون يسوع . فلم يبق أمامه إلا الجحيم فأنزلق فيه غائصاً يائساً » .

لوكاموس :

« حين رأى المسيح أباه غاضباً عليه . انحنت رأسه واضطربت نفسه وسقط على الأرض ثم قام يتضرع : " أبت إن كان مستطاعاً — وكل شيء لديك مستطاع — فجنبنى هذه الكأس " . . . ألى هذا الحد تبلغ شناعة الخطيئة حتى يتحتم على المسيح أن يكفر عنها بهذه الآلام المريرة ؟ إن المسيح يقبل الموت عن حرية وطواعية . ولكنه هل يستطيع أن يتحمل قسوة اللعنة الأبوية ؟

لقد ارتضى أن يقف بديلاً عن الخطأة . فما ينبغى أن يصل دعاؤه إلى السماء وما ينبغى أن يكون لاسم الآب المحبوب على شفتيه من مفعول . لقد قاسى المسيح آلام الجحيم ولكنه لم يقاس مرارة اليأس » .

بارا Parra :

« إن الله يعاقب فيه الخطيئة المجسمة فيسقط على الأرض ويتعفر وجهه بالتراب ولا يتجرأ على رفع عينيه إلى فوق . إنه يئن ويرتعد وينزف دماً . يستعطف قاضيه فيصم عنه الآذان » .

وأخيراً كخاتمة لهذه المختارات من النصوص المشوهة يجدر بنا أن

نذكر شهادة الأب Perroy .

« لقد لفظته الغبراء . وتخلى عنه الأصدقاء . وحجبت عنه السماء أشعة الأمل والرجاء . فلو كان يسوع مجرد إنسان فقط لغمره اليأس وسط هذه الآلام » . — « إلهى . إلهى لماذا هجرتنى أنت أيضاً ؟ » ألم يكن يسمع الله صراخه ؟ بلى. إنما تركه . وعوضاً من أن يمدّ له يد المعونة كان بالعكس ينحنى على هذا المنازع ويدفعه دفعاً إلى هذه الآلام والأوجاع . إن العدالة تقتص منه . وهذا هو سر يأس المسيح .

أخطأ الإنسان فتحتّم على يسوع — وقد أصبح الإنسان الخاطئ — أن يقاسى مرارة نتيجة الخطيئة أى الترك الإلهى .

فيالها من شريعة قاسية. شريعة العين بالعين والسن بالسن. ترك بترك، وهجر بهجر .

مات المسيح لكى أحيا أنا . انقطعت الصلة بين المسيح وبين الله لكى تعود الصلة بينى وبين الله .

حمل عقاب ما جنيت من آثام، لكى أنال البركة منه والصفح عنها .

عدالة صارمة من جانب . وعطف لا آخر لحده من جانب آخر .

فهل من تكفير أبعد من هذا التكفير وهل من عطف أقوى من هذا العطف .

رابعاً — ردّ فعل

إن ريفيير Rivière وريشارد Richard اللذين يعتبران حجة فى مادة علم الفداء يؤكدان أن النصوص المشوهة التى سبق ذكرها ليست الصدى لأمين التعليم الكنيسة الصحيح .

فقد كتب ريفيير يقول :

«إن هذا التعليم اللاهوتى الذى شوهه الأسلوب الخطابى قد استحال فى عقول هؤلاء الكتاب الوعاظ إلى تعليم لاهوتى صرف . وقد يكون ذلك عن حسن نية . ولكن مهما يكن فإن هذا التعليم الخطابى قد أصبح فى حد ذاته — بسبب المبالغة فى الأسلوب — أبعد ما يكون عن التقليد الكاثوليكى وأبعد ما يكون عن الحقيقة الموحاة » .

وقال ريشارد :

«إن الهدف الذى يرمى إليه هذا التعليم اللاهوتى الخطابى هو قطعاً الاهتمام بتصوير ما أحس به المسيح من آلام مروعة سببتها الخطيئة . صحيح أن تصوير ما أحس به المسيح من آلام على هذا النحو يبين شناعة المعصية ويكشف عن خطورة الإثم . إلا أن هذا التصوير كان على حساب الحقيقة وعلى حساب نصوص الكتاب والتقليد .

فالقديس بولس فى تعليمه لا يذكر إطلاقاً أن المسيح استشعر

غضب الآب وقسوته التى تحل بالإنسان الشرير . والقول بخلاف ذلك يعد تجديفاً صارخاً نبذته تعاليم كل الأجيال السابقة . ومن المستحيل أن يخطر بخاطر المسيح تلك الصورة البشعة التى تُظهر الآب ثائراً ناقماً غاضباً عليه . فالمسيح كان يعرف تماماً أن الله يحبه وأنه يحب الآب . ففكرة الترك والهجر وما تحمله من غضب وانتقام وسخط واحتدام هى إذن فكرة غريبة على الآباء وعلى لاهوتى الجيل الثالث عشر .

وقال أيضاً ريشارد :

إن أشهر لاهوتى الجيل السادس عشر سواء كانوا من الدومينكان أم من اليسوعيين ظلوا أمناء لتعاليم أكبر معلمى الجيل الثالث عشر . فحين كانوا يصادفون تلك العبارات المستحدثة عن التخلى والهجر كانوا ينبذونها بشدة .

وكان الأب بويس Bouesse على حق حين قال :

« هناك عبارات غير صحيحة تتخفّى فى كتب ومواعظ كثيرة قد شوّهت جمال الصفح الإلهى وسموه » .

وكتب الأب ديهو Dehau يقول :

« إن بدعة الجانسنيين أثرت فى عقول هؤلاء الكتاب والوعاظ وصبغت مؤلفاتهم بصبغتها فصورت لهم العدل الإلهى حانقاً ساخطاً يريد أن يسقط سقوط النسر على فريسته . والواقع عكس ذلك .

فهو الحب وليس السخط الذى يغمر الذبيحة . وإن تبديل مقتضيات

الحب بمقتضيات العدل إفساد شيطانى . فليس فى مقدور أحد أن يغزو فريسته ويخطفها من الحب ليقدمها طعاماً لنقمة العدل غير الشيطان . ولذلك نحن نعذر هؤلاء الكتاب . فإنهم وإن نادوا بهذا التعليم المشوه عن غير قصد . إلا أن نتائج تعليمهم لا تبطل أن تكون مضرة » .

والآن ينبغى أن نسوق نصوصاً كلها حق وصدق وصواب . وإنه من الشجاعة أن يعترف بالصدق والحق والصواب .

فقد قال الأب مرش :

« وقف المسيح أمام الله محملاً بثقل ما اقترف العالم من آثام وسيئات . فأصبح خاطئاً شاملاً ينوب عن الجميع . وأراد الغضب الإلهى أن يمحقه محقاً . إلا أن ما قام به المسيح من أفعال يتعارض أشد المعارضة مع أعمال الجحيم . فالجحيم يأس وبغض وكيد . الجحيم مقاومة الإنسان لله والإنسانية ، بل هو مقاومة الإنسان لنفسه أيضاً . أما أعمال المسيح فكلها أمل وحب واتحاد » .

وقد قال الأب برو Bro

إن العدل الانتقامى هو قطعاً من عمل الإله القاسى سفاك الدماء . فالقول بذلك يعتبر تجديفاً شنيعاً على الله .

وقال القديس فرنسيس سالس معلقاً على مقال لأحد الكتاب :

« إذا قصد مؤلف هذا المقال أن لأوجاع المسيح وآلامه قيمة لامتناهية واستحقاقات لا حد لها . فقوله صحيح .

أما إذا زعم أن سبب هذه الآلام هى نقمة الآب عليه وهجره إياه . فإنه يكون مخطئاً فى قوله مجدفاً تجديفاً شنيعاً. لأن آلام المسيح هى منهل وتعزية ينبوع خلاص . وكل من يشرب منها لا يعطش إلى الأبد ».

وخلاصة القول إذا كان من حقنا أن ننبذ فكرة الغضب الإلهى الذى يسقط سقوط النسر على فريسته البريئة. فمن الحق علينا أيضاً أن نجد شيئاً آخر نستعيض به عن الغضب الإلهى . فالمعروف أنه لا يتنقض شىء إلا إذا وجد ما يسد فراغه .

ثم لاحظ أن إقصاء العدل الانتقامى ليس معناه إقصاء كل عدل . فكأننا بذلك نهرب من الدب إلى الجب . فالعقيدة الصحيحة تنبذ العدل الانتقامى كما أنها تنبذ أيضاً فكرة إبعاد العدل أى عدل . إذن فلا بد من الحرص وحب الاعتدال وحفظ التوازن . أما الذى يعلمنا هذا الحرص وهذا الاعتدال وهذا التوازن فهو القديس توما . كما سنرى بعد قليل .

الفصل الثانى

تدبير التجسد الفدائى

أولاً ــ الخطيئة الأصلية

إن تاريخ الإنسانية ينقسم إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : ارتفاع مع آدم وفى آدم بالنعمة المبررة .

المرحلة الثانية : سقوط مع آدم وبآدم بواسطة الخطيئة الأصلية .

المرحلة الثالثة : تجديد مع المسيح وبالمسيح ــ آدم الثانى ــ بواسطة راية الصليب .

خطيئة جماعية :

فى الواقع أن سر الفداء مرتبط ارتباطاً وثيقاً بسر الخطيئة الأصلية . فلولا معصية آدم لما كان هوان الصليب . فلا ينبغى إذن أن يُقلّل من أهمية الخطيئة الأصلية أو يُنتقص من اتساعها بزعم أن الفداء لايتعدّى مفعوله حدود الخطيئة الشخصية . وهنا قد يبدو لنا الوحى الإلهى فى هذه النقطة عسيراً منفراً لأول وهلة ، إلا أنه يجب أن يقبل برمته أو يرفض برمته . ولا سبيل للانتقاء الاختيارى . فالخطيئة

الأصلية جماعية شاملة كما أن الفداء جماعى شامل .

والعجيب أن ترى فى الناس من يتنكرون لعقيدة الخطيئة الأصلية الجماعية ويضيقون بالفداء الجماعى فى عصر يتزايد فيه إدراكهم بقيمة الروح الجماعية والمبادئ الاشتراكية التعاونية وتتخذ فيه الصلة بين الفرد والمجتمع شكلا أعمق وأخصب . . . فقد قيل إن عصرنا الحديث هو عصر الإنسان الاجتماعى . وإن الفرد لا يستطيع أن يحقق مصيره إلا فى إطار الجماعة . لا بل ذهب بعض الفلاسفة إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يخرج من المجتمع دون أن يخرج بالتالى من صميم إنسانيته (دوركايم) .

ونحن كذلك نعلم — ضد العزوبة الفردية والعنصرية — أن البشر جميعاً وحدة متماسكة وأسرة واحدة . وأن الأفراد فى هذه الأسرةمتساوون فى فى كافة الحقوق والواجبات .

وقد أشار القديس توما إلى هذه الحقيقة بقوله : « كما أن مختلف أعضاء الجسم يتألف منها شخص واحد . كذلك فإن أفراد البشر جميعاً يتألف منهم أعضاء طبيعة بشرية واحدة . وإن وحدة الجنس البشرى وحدة أنطولوجية (أى مبنية على النظام الطبيعى) لا أدبية فقط . وعلى هذا الأساس بنى القديس توما عقيدة انتشار الخطيئة الأصلية . لأن مجموعة أفراد البشر يعتبرون شخصاً واحداً . « فليس بعد يهودى ولا يونانى . ليس عبد ولا حر . ليس ذكر ولا أنثى . لأنكم جميعاً واحد » .

كذلك لم يجدد الله البشرية مرتين على نحو جماعى بدون مبرّر . فقد كان هذا التجديد على صعيدين روحيين متكاملين ؛ مرة فى آدم

وحواء ومرة أخرى فى المسيح ومريم : آدم الجديد وحواء الجديدة .

ففى المرة الأولى — أى فى حالة البرراة — زيّن الله البشرية بطريقة عجيبة . فقد منحها كنوزاً ثمينة ومواهب عديدة . وفى المرة الثانية — أى بعد السقطة — أقالها من عثرتها بطريقة أعجب . فقد سفك دماءه من أجلها على الصليب .

والإنسان مع ذلك لا يزال إنساناً . . . إنه مشكلة بل سر ! ! فقد شاءت حكمة الله التى تدبر الكون فى رحمة وعدل ، شاءت أن تحترم شخصية الإنسان وحريته . ولكن الله — مع احترامه للشخصية الفردية والحرية الإنسانية — ليس بمضطر ولا مجبر على أن يفكّ ذلك الرباط الذى يجمع بين حظ الفرد وحظ الجماعة . فمن المستحيل على الفرد أن يحيا فى عزلة عن الآخرين . ولا يمكن انتزاع الفرد من قلب المجتمع لا فى مختلف درجات التصاعد الاجتماعى فحسب (كالأسرة والطائفة والنقابة والمدينة والدولة) بل فى درجات التصاعد الروحى أيضاً .

« إننا جميعاً أخطأنا فى آدم . فكذلك نحن جميعاً افتدينا بالمسيح فى المسيح » .

نحن لسنا أفراداً مبعثرة تعيش فى عزلة وانفرادية .

الخطيئة الأصلية لم تمس حقوق الطبيعة البشرية :

إن الخطيئة الأصلية لم تفقد الإنسان أى شئ من ذاتيات طبيعته الإنسانية التى فطر عليها . ولم تمس حقوقه الذاتية : فالعقل مازال قادراً

بطبعه — دون ما حاجة إلى الوحى — على إدراك الحقائق . والعاطفة ما زالت بعد السقطة تتمتع بنعمة الحب والخير والجمال . والإرادة أيضاً ما زالت بعد السقطة حرةّ تختار بين الخير والشر . . . هذا ما يسلم به العقل السليم والاختبار الواقعى . فما الذى فقدناه بالخطيئة إذن ؟

إن ما فقدناه بالخطيئة الأصلية هو المواهب الفائقة الطبيعة أى النعمة المبررة . ثم المواهب الزائدة عن حاجة الطبيعة : أى العلم المناقض المفاض للعقل. وقمع الشهوة للقلب ، والخلود للجسد . وهذه المواهب وتلك ليست حقّاً من حقوق الإنسان الطبيعية[1] .

ولذلك يقال للخطيئة الأصلية التى نولد بها : « خطيئة طبيعة » لا خطيئة شخصية . وبالتالى فلا مسئولية تقع علينا . ولا قصاص نقاسيه ولا ذنب نجنيه يكون له طابع شخصىّ مهما كان هذا الذنب أو هذا القصاص طفيفاً .

غير أن الإنسان — شأنه شأن الملاك — ليس له بمجرد قواه الطبيعية أن يطمع فى امتلاك الله بواسطة المشاهدة الطوباوية فى السماء .

وفى هذا يقول القديس توما :

---

(١) وهنا قد يخطر بخاطرنا هذا السؤال : إذا كان الله عادلا فلماذا يقاصنا ونحن لم نجن ذنباً ؟ وكأنى بالله يعاقب الآباء فى أبنائهم ؟ وكأن الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون .

والجواب هو أن العقاب الذى حل بنا ما هو إلا حرمان من مواهب تفوق طبيعتنا البشرية . فالله لم يهدم شيئاً من صميم طبيعتنا أو مقتضياتها ولكنه حرمنا مما هو فوق طبيعتنا فقط ومع ذلك فقد كان الله مستعداً أن يمنحه لآدم وأبنائه لو حقق آدم الشرط الذى وضعه له الله . . . فإذاً لا شىء ينافى عدل الله .

« إن الحياة الأبدية التى تقوم فى مشاهدة الله الطوباوية إنما تفوق مقدرة الطبيعة المخلوقة — كل طبيعة مخلوقة — أيًّا كانت » .

ولهذا فإن الأطفال الذين يموتون بدون العماد المقدس لا يمكنهم أن يذهبوا إلى السماء لأنهم مجردون من الحياة الفائقة الطبيعية أى حياة النعمة ... وإنما تذهب نفوسهم إلى الليمبس حيث يتمتعون بكل ما هو من الخصائص الطبيعة البشرية . إنهم ينعمون بالسعادة الطبيعية فى سلام وأمان دون ألم أو حزن أو ما يمكن أن يكدر صفاءهم .

كما أن حرمانهم نعمة العماد لا يسبب لهم حزناً شأنهم شأن الحكماء الذين يقنعون بما يمتلكون دون حقد على أحد أو طمع فى مال .

ثم بالخطيئة الأصلية عرفت طبيعتنا الإنسانية — برغم الاتحاد الوثيق بين النفس والجسم — عرفت حياة الصراع العنيف : صراع الروح للحم . وصراع الإرادة للأهواء المتأصلة فى عروقنا ، لأن قوانا الدنيا تميل بشدة إلى اللذة . أما قوانا العليا فنجنح إلى الخير السامى وتريد الإنطلاق إلى الآماد العليا . «إن الجسد يشتهى ما هو ضد الروح والروح يشتهى ما هو ضد الجسد ، كلاهما يقاوم الآخر حتى إنكم لا تصنعون ما تريدونه » غلا ٥ : ١٧

وحتى الذين يتنكرون للخطيئة الأصلية نرى أن طبيعتهم الإنسانية قد اختبرت عذاب الأهواء والألم والموت . هذا ما يعلم به الوحى .

ولكننا لا نستطيع أن نستنتج عن يقين بواسطة العقل المجرد من الوحى ، حقيقة وجود خطيئة أصلية جماعية . أو بعبارة أخرى : إذا كان

الوحى يعلّم بأن أبوينا الأولـَين نعما بموهبة الخلود وأن الميل الحسى فيهما لم يصبح شهوة بالمعنى المحقر إلا بعد سقوطهما فى الخطيئة ، فإن العقل بصرف النظر عن الإيمان – لا يضطرنا إلى التسليم بهذه الحقيقة .

ورب سائل يسأل :

إذا كانت طبيعتنا البشرية لم تفسد فساداً جوهريًّا بسبب السقطة الآدمية . فهل أصابها على الأقل انحطاط أو تجريح ؟

وللرد على هذا السؤال ينبغى التمييز بين حالة الإنسان من حيث الواقع التاريخى وبين حالته من حيث التكوين الذاتى الميتافيزيقى .

فتاريخيًّا أى بالنسبة لحالة البرارة التى وجد فيها آدم وحواء يمكن القول مع أشهر التوماويين بأن الطبيعة البشرية قد جرحت سيكولوجيًّا بعد السقطة وانحطت إلى أسوإ مما كانت عليه قبل السقطة . فقد أحست بالحرمان وشعرت بالحنين إلى الخير المفقود وتطلعت نحو المستقبل وتاقت إلى محرر ومخلص .

أما ميتافيزيقيًّا أى بالنسبة للطبيعة فى تكوينها الذاتى والأنطولوجى فيمكننا القول بأن الطبيعة الساقطة لم يحدث فيها أى تغيير جوهرى : فلا هى انحطت ولا فسدت ولا جرحت . لقد ظلت سليمة فى جوهرها بعد السقطة كما كانت عليه قبل السقطة . فالإنسان حين أخطأ لم يخرج عن صميم إنسانيته ولم يهبط إلى مستوى الحيوان . أضف إلى ذلك أن الله كان فى وسعه أن يخلق الإنسان فى حالة الطبيعة المحضة المجردة من كل

نعم ومواهب فائقة الطبيعة . لأن الإنسان فى تكوينه الذاتى قابل بطبعه للضعف والجهل والمرض والألم والموت دون أن يكون ثمة افتراض لفقدان وحرمان أو تجريح وانحطاط .

فعقيدة رفع الإنسان إلى الحالة الفائقة الطبيعة ثم سقوطه فى الخطيئة منذ فجر الإنسانية هى من ثمرة الوحى والإيمان . وقد أشار القديس توما إلى هذه الحقيقة بقوله : « بالبرارة الأصلية كان العقل خاضعاً لله . والقوى السفلى خاضعة للعقل ، والجسم للنفس . وقد اختلّ هذا التوازن بالخطيئة الأصلية . فثار العقل على الله ، وتألبت القوى السفلى على العقل ، وقاوم الجسم الروح ، وأدت المقاومة إلى الموت والفساد » .

إذن فهو انحطاط تاريخى لا ميتافيزيقى . وجرح سيكولوجى لا أنطولوجى ولذلك فالكنيسة ، الناطقة باسم التقليد المسيحى ، تتنكر لقول من يزعمون أن الإنسان بطبعه ما هو إلا مخلوق ساقط بهيمى تعميه شهواته الدنية . أو أنه بطبعه مخلوق غير شريف . فأولئك ينتقصون بهذا القول من قدر الإنسان ويهبطون به إلى مستوى الحيوان .

إذن فالطبيعة البشرية لم تفقد بسبب الخطيئة الأصلية شيئاً من صميم جوهرها . فعقل الإنسان بقى على كماله الطبيعى الذاتى ، والإرادة لم يعترِها فساد ولا تغيير فى جوهرها بل استمرت على ما كان لها من الحرية لاستحقاق الثواب أو العقاب . ولقد أعطانا القديس توما قاعدة رشيدة تجنبنا مزالق التطرف الجامح والتفسير المرتجل فيما يخص البرارة الأصلية قال : « كل ما يفوق طبيعتنا البشرية إنما نحن نتلقنه من الوحى . وكل

الحقائق الإيمانية إنما نستمدها من السلطة . وما عدا ذلك فينبغي احترام طبيعة الأمور بحيث ينبغي ألا نقول شيئاً مخالفاً لواقع الأشياء وطبيعتها .

وفعلا لقد تطرف بعض علماء العصر الوسيط ورفعوا من قدر البرارة الأصلية أكثر مما يجب ناسبين إلى آدم علماً مفاضاً يمتد حتى إلى المسائل الهندسية والعلوم الطبيعية . وفى ذلك مبالغة واضحة ولا شك .

أما القديس، توما فكان رصيناً معتدلاً فى هذه الناحية ولا سيما فى مسألة الخلود . فقال إن آدم لم يكن محصناً من الداخل ضد الأخطار الخارجية المميتة : كالقتل أو الغرق أو الحريق وما إلى ذلك . وإنما كانت العناية الإلهية تسهر عليه ، وترعاه ، وتدفع عنه الأذى .

وعلى هذا النحو يمكننا القول بأن الحيّات كانت دائماً من الزواحف ، والأسود مفترسة متوحشة . وليس ما يدعو إلى الارتياب فى هذه المسألة .

ثم ليس من الثابت أن حال البرارة الأصلية قد استمرت طويلاً عند آدم . المهم أن البشرية كانت بترتيب إلهى وبمعزل عن إرادة أبناء آدم ، متضمنة فى أبى البشرية بصفته المنبع والأصل . وأن الحالة التى خلق الله فيها أبوينا الأولين والتى تكاد تكون من بعض الجوانب أشبه بحالة الملائكة ، هى من ثمرة إنعامات الله . وإن هذه الحالة إنما تعلن عن قصد الله بأنه أراد أن يكون البشر جميعاً أسرة واحدة كبيرة وقد أفاض عليها من غير حساب السعادة والحياة الفائقة الطبيعية .

وقد كان على آدم بعد ذلك كله وفى مثل هذا الثراء الروحى أن يختار باسم البشرية : فإما أن يقف بجانب الله وإما أن يقوم ضده . لأن

الإنسان شأنه شأن الملاك لا يستطيع أن يطالب بالاستقلال عن خالقه ، مصدره الأول ومرجعه الأخير . فإنه من ألزم واجباته الخضوع لله عن حب وإخلاص . كذلك لا يستطيع الإنسان أن يطالب بالعصمة من الزلل . فلو أن آدم لم يقع فى الخطيئة لوجب على كل واحد من أبنائه أن يمرّ بنفس الامتحان الذى مرّ به الأب . فكان يطلب منا نحن أيضاً أن نختار بين الله وبين العدم . تلك قطعاً هى حال كل الأرواح المخلوقة .

وفى هذا يقول القديس توما ويكرر قوله : « إن القدرة على ارتكاب الخطيئة ليست من صميم الحرية ، وإنما هى نتيجة من نتائج الحرية » ويقول أيضاً : « لم يوجد قط ولن يوجد أبداً مخلوق ، مهما كانت طبيعته ، مثبت فى الخير يكون بطبعه غير قابل للزلل » . ومن أقواله أيضاً : « إن الإنسان والملاك بطبعهما قابلان للزلل عن حرية » .

وعلى هذا فقد كان آدم وحواء سعيدين ومتمتعين باتزان تام يفوق طبيعتهما الاعتيادية . فقد تورطا فى الزلل برغم هذا الاتزان الكامل ولم يكن ما يبرر سقوطهما أو يخفف من حدته . لقد وسوس لهما الشيطان فتألبا بحريتهما على الله فى أنفة وكبرياء . فقداسة الإنسان تقوم أساساً على اعترافه بأنه مخلوق لا خالق . عبد لا سيد . وكان على آدم وحواء أن يعرفا هذا ويرضيا به . ولكنهما رفضا الخضوع . ومهما تكن مادة هذه الخطيئة (فإنه يدور نقاش حول طبيعة الثمرة المحرمة . فقد تكون مجرد رمز . وقد تكون شيئاً آخر) فهى على كل حال خطيئة شنيعة كخطيئة الملاك المتمرد .

وكانت النتيجة بعد هذا السقوط المريع أن وجد آدم وحواء نفسيهما عريانين خجلين متجردين من كل الإنعامات ؛ واقعين تحت سلطان رئيس هذا العالم الكذاب القتال . وفعلاً هو الشيطان الذى أغوى أبوينا الأولين فأصبحت المأساة البشرية مرتبطة بالمأساة الملائكية مكملة لها . وهذا مهم لمعرفة الترابط بين الحقائق الموحاة التى تكشف عن حالتنا على الأرض .

وقد أشار إلى ذلك الأب بويه Bouyer بقوله :

« إن الطبيعة البشرية الساقطة لم تكن فى نظر الآباء طبيعة مجردة من المواهب فحسب إنما صارت بسقطتها أسيرة الشيطان . والخطيئة لم تكن فى نظرهم مجرد ابتعاد عن الله وتمسك بالذات ، وإنما كانت ارتباطاً بالشيطان بدلاً من الارتباط بالله . ولهذا كان من الممكن فى نظر الآباء أن تظل الطبيعة غير مفسودة فى صميمها . ومع ذلك تكون فى حالة أسوأ مما كانت عليه قبل السقطة . وإن القيام من هذا التدهور لا يمكن أن يكون بمجرد القوى الطبيعية . لأن الإنسان بابتعاده عن الله لم يصبح سيداً لنفسه بل أصبح عبداً للشيطان ملكاً له[1] .

---

(١) يبدو أن العروض الحديثة الخاصة بالسقطة الأصلية تتضمن تناقضاً خفياً إذ لم يعمل للشيطان فيها حساب . فالعروض لم تخلو من أمرين : « فهى إما أن تعتبر الطبيعة البشرية قد فسدت فى صميمها (بدعة المانوية) وإما أن تفرغ السقطة من حقيقتها (بدعة البيلاجية) أما الآباء فقد تخلصوا من هذا التناقض إذ كان لهم اعتبار ثالث : الشيطان .

وهذا ما أشار إليه السيد المسيح بقوله :

« لو كنتم بنى إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم . لكنكم الآن تطلبون قتلى وقد كلمتكم بالحق الذى سمعته من الله . وذلك لم يعمله إبراهيم . أنتم تعملون أعمال أبيكم . . . أنتم من أب هو إبليس . وشهوات أبيكم تبتغون أن تعملوها . هو من البدء قتال الناس ولم يثبت على الحق لأنه لا صدق فيه . وإذا تكلم بالكذب فإنما يتكلم بما هو له لأنه كذوب وأبو الكذب » ، (يو ٨ : ٣٩ — ٤٤) ، (ومتى ١٣ : ٣٧ — ٣٩).

فينبغى ألا نهمل الشيطان من تاريخ السقطة وتاريخ الفداء . فرئيس هذا العالم جرب المسيح ثلاث مرات فى بدء حياته العلنية ولم يستطع التغلب عليه . إلا أنه دخل التاريخ مباشرة بعد خلقه الرجل والمرأة . ولا يزال هذا اللعين يتدخل يوميًّا فى تاريخ حياة كل واحد منا . أنه يمثل لنا الشر خيراً والخير شرًّا ويخلط عن قصد بين الحق والضلال . لا بل إنه أحياناً يوهمنا بأنه غير موجود وأنه مجرد خيال . إلا أن حياة القديسين أمثال أنطونيوس وخورى آرس وأمثالهم تشهد على وجوده وعلى أعماله الشريرة . فقد يستطيع الشيطان أن يتسلل إلى أفكار السياسيين والفلاسفة والأدباء كما يستطيع أن يشغل أصحاب المهن غير الشريفة كمحضرى الأرواح والسحرة وغيرهم. فذلك كله دليل قاطع على وجوده وعلى عمله .

وإذا كان يجب ألا نرى الشيطان فى كل مكان وفى كل شىء . فكذلك ينبغى ألا ننكر وجوده . ولنذكر قول الرسول : « إن إبليس

خصمكم كالأسد الزائر يجول ملتمساً من يبتلعه » (ابط ٥ : ٨) .

أما بخصوص الموت الطبيعي فإنه يرمز إلى موت الخطيئة . فالنفس التي تنفصل عن الله مصدر حياتها أشبه بجيفة روحية . هذا من جانب التشبيه والتجريد . أما من جانب التاريخ والواقع فإن الموت الطبيعي هو أكثر من التشبيه . إنه ثمرة الخطيئة : «أجرة الخطيئة هي الموت» . (رو ٦ : ٢٣) .

هذا ما يعلمنا به الوحي وهذا ما يجب التمسك به .

فخلقة آدم وحواء تتضمن مجموعة من الحقائق الفلسفية والعقائدية والخلقية . وإن الخلقة ما هي إلا مقدمة لعمل آخر سوف يقوم به الله : الفداء . والفداء حدث من الحوادث التاريخية التي تعتبر أجمل من الخلقة والتي تكشف عن قمة أعمال الله وعن قدرته وعظمته ومحبته للبشر .

ثانياً – التجسد والصليب

إن البشرية – بسبب ميلها إلى الشر والإثم – إنما تئن وتبكي وتتألم وتموت . وهنا لا يعنينا ما الذي كان سيحدث لو أن آدم وحواء لم يتورطا في الخطأ . وإنما الذي يهمنا هو التأمل فيما يقدمه لنا الوحي الإلهي عن حالتنا الراهنة .

إن عقيدة الخطيئة الأصلية مرتبطة بعقيدة التجسد ارتباطاً تاريخياً. فإزاء شجرة معرفة الخير والشر تنتصب شجرة الصليب . وتجاه تمرد أبوينا

الأولين وكبريائهما ، يتجلى خضوع ابن الله المتجسد وتواضعه . إن الجميع أخطأوا فى آدم وكذلك الجميع افتدوا بالمسيح : « كل شىء لكم وأنتم للمسيح والمسيح لله » (اكور ٣ : ٢٣) لقد سقطت أسرة البشر الكبرى بسقوط آدم وحواء وتمرغت فى وحل الإثم . وما سمح الله بذلك إلا لكى يرفعها بواسطة المسيح ومريم : آدم الجديد وحواء الجديدة . إن الظل يستدعى النور . ولا معنى للظل من غير النور . « فبما أن الموت بإنسان فبإنسان أيضاً قيامة الأموات ، فكما فى آدم يموت الجميع كذلك فى المسيح سيحيا الجميع » (اكور ١٥ : ٢٢) .

فكل شىء يتعلق بالحياة الأبدية إنما هو خاضع للفائق الطبيعى . ولن يكون هناك أبداً مجال للطبيعيات فيما يخص مصيرنا الأخير . ومن يرفض التسليم بذلك فإنما يركبه اليأس والشك وهو يحاول أن يبنى عبثاً برجاً فى بابل.

لقد أعطانا الله — فى فجر الخليقة — كثيراً من إنعاماته . وبعد السقطة أعطانا أكثر مما يجب إعطاؤه . . . لقد حرص الله فى الخلقة على أن يحفظ للطبيعة البشرية كرامتها بطريقة عجيبة . وبعد السقطة حرص على أن يجددها ويرفعها بطريقة أعجب . . . فسر التجسد الفدائى هو الذى يؤله على نوع ما البشرية جمعاء . وإن سر الفداء لأروع وأعظم من عمل الخلقة سواء من جانب الله أو من جانب الإنسان أو من جانب الحب أو التعبير عن الحب . . . إن عمل الخلقة جميل ولكن أجمل منه عمل الفداء . . . إن الله محبة . والمحبة هى مفتاح كل ما يسمح به الله ويريده . . .

فيا له من تفاؤل . ويا له من تكامل .

ونحن ما هو واجبنا تجاه سر المحبة ؟

أن نزيد من حبنا لله . ونحسن تفهم محبتنا له فى ظل الصليب الدامى أكثر من محبتنا له فى ظل السعادة والرفاهية . فإن الله لا يسمح بأن يصيبنا الألم ويمسنا الشر إلا لكى يستعيض عنهما بأعظم المواهب .

فإن التجارب تطهر النفوس وتصفى الضمائر . والآلام تحد من غلواء العقل ، وتخفف من كبريائه ، وترده إلى التواضع ، وتشفيه من داء الغرور . فيعرف الإنسان أنه عاجز عن عمل الخير بدون الله . والمحن والخطوب تجرد الإرادة من الأهواء والشهوات وكل ما هو زائل وليس الله .

هذا هو الجانب السلبى للقداسة . أما الجانب الإيجابى فإن التجارب تقودنا إلى الثقة والإيمان بالحب الرحيم . فقسوة الله على الإنسان كقسوة الوالد على الولد مبعثها المحبة والخير . إن الألم ضرورة من ضروريات الحب . فالذى يحب يتوق إلى البذل وما البذل إلا الألم : « من شاء أن يكون لى تلميذاً فليحمل صليبه ويتبعنى » . فطريق المسيح ملأى بالأشواك والأوجاع . ولكنه ألم حلو لأن المسيح محبة . وإذا أجبت بالإيجاب على سؤال المسيح : أتحبنى ؟ فاحمل صليبك واتبعه .

فى هذه الثقة بالحب الرحيم تكتمل الفضائل اللاهوتية الثلاث عربون الثراء الروحى والمواهب الإلهية . ولقد بلغ القديس بولس حدًّا بعيداً من القداسة حتى قال : « الحياة لى هى المسيح » . وهو يعبر بهذا القول عن الأعجوبة الفريدة التى حولت آلامه البشرية إلى الفرح والسرور كما يقول

هو فى رسالته إلى أهل كورنتس : « أنا فائض بالفرح فى جميع مضايقنا » (٢ كور ٧ : ٤) .

هذه هى القداسة الإنجيلية بقطبيها السلبي والإيجابي . وهى على حد تعبير القديس أغسطين : « معرفة الإنسان نفسه ومعرفة الله » أو « أحبب واصنع ما تشاء » .

وهى على حد تعبير القديس يوحنا الصليبى : « أو الله أو العدم » . إذ ليس لنا هنا مدينة ثابتة» (عبر ١٣ : ١٤) .

وهى طريق الطفولة الطريق السهلة التى نادت بها القديسة تريزا الطفل يسوع .

إنها طريق جميع القديسين . فالذين يحبون الله كل شىء يعاونهم للخير (رو ٨ : ٢٨) . وأخيراً سوف تتحول كل أحزاننا إلى أفراح سماوية : « إنكم ستحزنون لكن حزنكم يؤول إلى فرح » (يو ١٦ : ٢٠) . «لأن ضيقنا الحالى الخفيف ينشئ لنا ثقل مجد أبدى لا حد لسموه إذ لا ننظر إلى ما يرى بل إلى ما لا يرى . لأن ما يرى إنما هو وقتى . وأما ما لا يرى فهو أبدى » (٢ كور ٤ : ١٧ — ١٨) .

والحال إذا أردنا أن ننفذ إلى أعماق هذا السر العظيم وجب علينا أن نثبت أنظارنا على شخصية فادينا الإلهى .

فإنه إذا أراد إنسان أن يكشف عن أفكار نفسه يرسل كلمته ويلبسها جسداً لكى تظهر لأعين الناظرين — أعنى أن تتحد كلمته بالحروف أو الأصوات — فهنا صارت الحروف أو الأصوات كلمة والكلمة صارت

حروفاً أو أصواتاً. وإذ يرسلها مرسلها إلى حيث يريد ، هناك تظهر الكلمة للكثيرين وتصير الكلمة فاعلة مشيئة مرسلها . ومع ذلك لا تبرح الكلمة قلب مرسلها .

هكذا فإن الله لما أراد أن يعلن نفسه للبشر ألبس كلمته الأزلية جسداً . ثم أتى هذا الكلمة إلى العالم متحداً بالجسد كاتحاد الكلمة بالحروف أو الأصوات . لأنه لا يستطيع أحد أن يعرف الآب إلا بواسطة الابن الذى قال عن نفسه : « أنا الباب . إن دخل بى أحد يخلص » (يو ١٠ : ٩) .

سر الحب :

إن التجسد الفدائى دليل الحب الإلهى . وقد أراد المسيح أن يكون هذا الحب رحيماً عن طريق الصفح . فيبدو لنا أكثر عمقاً وأشد عذوبة . كما يقول الرسول : « لقد أغلق الله على الجميع فى الكفر ليرحم الجميع » (رو ١١ : ٣٢) . والواقع أن الله لم يعطنا ابنه الوحيد إلا باعتباره فادياً .

فالقديس توما فى تعليمه عن سر التجسد يعطى الأولية للمحبة فيقول : إن ما جاء به سر التجسد والفداء من كنوز روحية إنما هو من ثمار الحب. فعن حبٍّ تجسد المسيح ،وعن حبٍّ مات . وعن الحب تنبع كل أسرار الله . وهذا الحب إنما يفوق إدراك كل البشر . ومن المستحيل أن يسبر غوره « فمحبة المسيح كما يقول الرسول تفوق المعرفة »(١أفس ٣ : ١٩). وكذلك فى رسالته إلى تيموثاوس يقول : « من المسلم أنه عظيم سر التقوى الذى

تجلى فى الجسد . وتبرر بالروح. ورئى من الملائكة . وبشر به فى الأمم. وأومن به فى العالم . وارتفع إلى المجد (١ تيمو٣: ١٦) إنه صوت النصر يرسله رسول الأمم . وقد عجز القديس توما عن ترجمة هذه العواطف. فلم يسعه إلا أن ردّد فى كثرة نصوص الكتاب فقال :

« إن السر هو ما خفى أمره . وليس أخفى من أسرار القلوب . فمن باب أولى ليس أقدس ولا أكثر خفاء مما يحمله الله فى قلبه . « لا يعلم أحد ما فى الله إلا روح الله » . وفى أشعيا ٤٥ : ١٥« إنك لإله متحجب يا إله إسرائيل المخلص ».

وكلمة الله هى أيضاً متحجبة فى قلب الآب .

(مز ٤٤ : ٢ فاض) «قلبى بكلام صالح» .

وأسرار الله مقدسة وصالحة . أما أسرار الإنسان فهى أحياناً باطلة.

مز (٩٣ : ١١) : « إن الرب يعلم أفكار البشر إنها باطلة » .

وإن سر الله هو سر الرحمة من حيث إنه يجدد العالم .

وهو سر عظيم لأنه هو الله نفسه الذى لا حد لعظمته . وهذا السر المتحجب فى قلب الآب صار بشراً . . . فكما أن الفكرة المتحجبة فى أعماق عقولنا تظهر بواسطة الكلمة . كذلك كلمة الله الذى كان متحجباً فى قلب الله أظهر نفسه فى الجسد : « والكلمة صار جسداً» (يو ١ : ١٤).

الله ظهر فى الجسد :

إن أقنوم الكلمة ليس إقنوماً بشريًّا كما أن طبيعته الإلهية ليست

طبيعة بشرية . وإنما هو إله بإقنومه الإلهى وطبيعته الإلهية . إنه كلمة الله، الكلمة المولود من الآب منذ الأزل ولادة روحية . وهذا الإله اتخذ له طبيعة بشرية وجعلها ملكاً خاصًّا له .

وهذه الطبيعة البشرية التى اتخذها هى كطبيعتنا تماماً نفساً وجسماً . فقد كان ابن الله المتجسد يفكر كما يفكر البشر . ويريد كما يريد البشر. ويحب كما يحب البشر . ويعمل كما يعمل البشر . وبالاختصار صار مثلنا فى كل شىء ما عدا الخطيئة ، وكل ما يتنافى وكرامة ابن الله الطهارة بالذات .

ولتوضيح هذا السر الكبير يمكنا أن نسوق أربعة تشابيه . ومن هذه التشابيه نرى أنه لا ينطبق على موضوعنا إلا التشبيه الرابع فقط .

أولاً : إن المملوك يحدث تغييراً فى المالك دون أن يتغير هو : (mutat et non mutatur) : مثل الحكمة التى يكتسبها الجاهل. فالجاهل يتحول إلى حكيم أما الحكمة فتبقى دون تغيير .

---

(١) هكذا لم يحدث أى تغيير فى الله بعد أن اتخذ الطبيعة البشرية . فإن الله غير متغير فى ذاته . لم يحدث أدنى تغيير فى الله لما تجسد . كما أنه لم يحدث أى تغيير فيه لما خلق . إن التغيير لم يكن من جانب الله . ولكنه كان من جانب الخليقة فقط . سواء فى التجسد أو الخلقة . . .

(٢) أما الطبيعة البشرية فى المسيح فظلت كما هى لم تتغير فى صميم جوهرها أى من جهة تكوينها الذاتى . (وهذا ضد المنوفيزيين (أصحاب الطبيعة الواحدة) الذين مزجوا بين طبيعتى المسيح .

(٣) أما الطبيعة البشرية فى المسيح فقد تغيرت لا من حيث جوهرها ولكن من حيث الثراء الروحى فقد اغتنت بواسطة الاتحاد الأقنومى . (فامتلأت نعمة وعلماً وفضيلة) .

ثانياً : المملوك يحدث تغييراً فى المالك ويتغير هو أيضاً : (mutat et mutatur) : مثل الطعام الذى يتناوله الآكل. فكلاهما يتحولان.

ثالثاً : المملوك والمالك لا يتغيران : (non mutat nes mutatur) : مثل الخاتم الذى يوضع فى الأصبع . فلا الخاتم ولا الأصبع يتغيران .

رابعاً : أخيراً المملوك لا يحدث تغييراً فى المالك . أما هو فيتغير : (non mutat sed mutatur) : مثل الثوب الذى يتخذ شكل الجسم دون أن يتغير الجسم .

فهذا التشبيه الأخير وحده هو الذى ينطبق على المسيح . فإن الطبيعة البشرية المملوكة من المسيح قد اتحدت بشخصه (المالك) . فتحولت إلى طبيعة شريفة، مقدسة طاهرة . لقد امتلأت نعمة وحقًّا على حد قول القديس يوحنا : « وقد رأينا مجده مجد وحيد للآب مملوءاً نعمة وحقًّا » (يو ١ : ١٤) .

« والكلمة صار جسداً » . يتساءل هنا القديس توما عن عدم ذكر النفس . مع أن المسيح اتخذ له نفساً وجسماً . ثم إنه من المعلوم أن النفس أشرف من الجسد . فلماذا أغفل يوحنا الرسول ذكر النفس ؟

(١) يجاوب القديس توما على ذلك بقوله : لأن الرسول يوحنا قصد أن يزيل كل شك يحوم حول حقيقة جسد المسيح : فقد وُجد فى عصره من أنكروا حقيقة جسم المسيح زاعمين أن جسده خيالى : « فكل روح يعترف بأن يسوع المسيح قد أتى فى الجسد فهو من الله . وكل روح يحل يسوع المسيح فليس من الله (١ يو ٤ : ٣) . وسبب هذه البدعة أن الدوسيت

كانوا يزعمون أن الأجسام الأرضية إنما هى من صنع الشيطان .

ولكى يبرهن المسيح على حقيقة جسده نراه بعد القيامة يقول لتلاميذه : « جسونى لأن الروح لا عظم ولا لحم له كما ترون » (لو ٢٤ : ٣٩) . كما أن يوحنا يكرر القول فى عبارات محسوسة مؤكداً حقيقة جسد المسيح : « الذى كان فى البدء . الذى سمعناه . الذى رأيناه بعيوننا . الذى تأملناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة . لأن الحياة قد ظهرت ورأيناها ، ونشهد ونبشركم بالحياة الأبدية التى كانت عند الآب وظهرت لنا » (١ يو ١ : ٣) .

(ب) وأراد أيضاً القديس يوحنا أن يبين محبة الله لنا بشكل واضح : فلو أخذ المسيح نفساً دون الجسد لعددنا ذلك رحمة وعطفاً منه . ولكن يذهب المسيح إلى أبعد من ذلك فيتنازل ويتخذ له أيضاً جسداً . لأن الجسم أبعد ما يكون عن روحانية الله « عظيم سر التقوى الله ظهر فى الجسد » (١ تيمو ٣ : ١٦) .

(حـ) أراد القديس يوحنا أن يشير إلى أبرز ما حققه الله فى المسيح بسر الاتحاد : فإن الله حين يتحد بسائر البشر إنما يتحد بنفوسهم فقط اتحاداً روحيًّا دون أجسادهم أما كونه يتحد بالجسم أيضاً فهذا لم يتحقق إلاّ فى المسيح وحده . . . ولذا فسر التجسد هو سر الاتحاد الفريد فى نوعه ، العجيب فى تحقيقه . . .

(د) أراد أخيراً القديس يوحنا بذكر الجسد أن يلمح إلى أن سر التجسد كان معدًّا لسر الفداء ، فالإنسان لما أصيب فى جسده بالخطيئة

فقد أراد الكلمة أن يعالجه بالجسد : « ما لم يستطعه الناموس وضعف عنه بسبب الجسد قد أنجزه الله إذ أرسل ابنه فى شبه جسد الخطيئة وقضى على الخطيئة فى الجسد » (رو ٨ : ٣) .

الله صار إنساناً فادياً :

بتجسده صار ابن الله كاهناً وذبيحة ليدل بذلك على أكبر حب ممكن : « إذ ليس لأحد حب أعظم من أن يبذل نفسه عن أحبائه » (يو ١٥ : ١٣). هذا الحب قد حققه المسيح . ولم يكن من الممكن أن يصنع أكثر من ذلك .

كان من الضرورى أن يقدم المسيح شيئاً . فلم يرد أن يقدم إلا نفسه .

١ — وكانت تقدمته هذه طاهرة لأن جسده كان خالياً من كل وصمة : « حمل صحيح ذكر حولى » (خروج ١٢ : ٥) .

٢ — وكانت تقدمته لائقة : لأنه كان من اللائق أن يعوض عن الإنسان إنسان مثله . فخلاص الخليقة يجب أن يكون عن طريق الخليقة . « المسيح قرّب نفسه لله بلا عيب » (عبر ٩ : ١٤) .

٣ — وكانت تقدمته قابلة للذبح . لأن جسده كان قابلاً للموت . « أرسل الله ابنه فى شبه جسد الخطيئة » (رو ٨ : ٣).

٤ — وكانت تقدمته مساوية على نوع ما لمن ستقدم له : « أنا والآب واحد » (يو ١٠ : ٣٠) .

٥ — وكانت تقدمته تهدف إلى توحيد من قدمت من أجلهم مع الله :

«ليكونوا بأجمعهم واحداً كما أنك أنت أيها الآب فىّ وأنا فيك . ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا » (يو ١٧ : ٢١) .

وهنا رب معترض يعترض : أليس أن جسد المسيح أرضى ؟ فكيف يمكن أن يستخدمه كآلة للخلاص ؟

والرد على ذلك هو :

ماديًّا، صحيح أن جسم المسيح أرضى . « وقد دفعت الأرض إلى أيدى المنافقين (أيوب ٩ : ٢٤) .

١ — وإنما : بموجب الاتحاد الأقنومى : فقد جعل الكلمة الإلهى الجسد الذى اتخذه ، ملكا خاصًّا به . « والذى جاء من السماء هو أعلى من الكل (يو ٣ : ٣١) .

٢ — بموجب أصله الإلهى — فقد حبل به من الروح القدس .

٣ — بموجب ثمار الفداء. فإن غايته من تقدمة هذا الجسد . لم يكن من أجل خير زمنى بل من أجل خير أزلى. « أنتم من هذا العالم أما أنا فلست من هذا العالم » (يو ٨ : ٢٣) من أجل هذه الأسباب كلها يمكننا القول بأن جسد المسيح لم يكن أرضيًّا .

والعجيب المدهش فى سر الفداء أنه من صنع الإله والإنسان معاً . وقد أشار إلى ذلك القديس توما فى شرح رسالة القديس بولس لأهل كولوسى فقال : « صار المسيح ضحية وافتدانا بدمه بصفته إنساناً . وغفر خطايانا وخلصنا من عبوديتها بصفته إلهاً » .

ولو فرضنا أنه قُدِّم تعويض آخر غير تعويض الإله المتجسد لما كان

له قيمة أو استحسان . فقد كان مستحيلاً على الإنسان أن يقدم ترضية لله لأنه كان إنساناً ساقطاً يرسف فى قيود الشر وعبودية الإثم . وكان مستحيلاً على الملاك أن يقدم ترضية بدلاً منا . لأن الترضية كان يترتب عليها مجد المشاهدة الطوباوية . وليس للملاك سلطان عليها . فالمشاهدة لا تمنح إلا من الله وحده . إذن فالتعويض والوفاء التام الكامل لا بد من أن يكون من عمل الإله والإنسان معاً أو قل الإله الإنسان .

فالمسيح الإله المتجسد هو وحده الذى أبطل بموته سلطان الشيطان على الموت كما قال الرسول : «اشترك فى الدم واللحم لكى يبطل بموته من كان له سلطان الموت أعنى إبليس» (عبر ٢ : ١٤) .

وكما أنه بإنسان هلكت البشرية كذلك يجب أن تفتدى بإنسان . فالعدل يقتضى أن يخلص الإنسان بالإنسان . وإنما هذا الإنسان كان إلهاً . وهنا تدخلت الرحمة التى لا حدّ لقرارها . ولولا تدخل رحمة الله لأبطل العدل وأضحى تحقيقه عسيراً لا بل مستحيلاً : « الرحمة والحق تلاقيا ، العدل والسلام تلاثما » (مز ٨٤ : ١١) .

صار ابن الله فادياً :

إن الله واحد فى ثلاثة أقانيم : الآب والابن والروح القدس . والذى تجسد هو الابن. والذى فدانا هو الابن . فلماذا يتجسد الابن؟ ولماذا يقدم الابن نفسه ضحية وقرباناً لكى يفتدينا دون الآب أو الروح القدس ؟

مع أنه كان من الممكن جداً أن يتجسد الآب ، أو الروح القدس.

صحيح أن المسيح فدانا بصفته إلهاً . ولكنه لأسباب لياقية — كما يقول القديس توما — قد فدانا بصفته ابن الله . إذ هو صورة جوهر الآب . والحكمة بالذات. والوريث البكر بين إخوة كثيرين . فنحن جميعاً ذاك الابن الشاطر . فبؤسه وشقاؤه يستدعيان رحمة وحنان الابن البكر .

وقد تساعدنا هذه الاعتبارات على أن نحسن تفهم روح البنوة . وروح الطفولة التي يجب أن تتطبع علاقاتنا مع الله في ظل الرحمة والغفران.

إذن فمن اللائق أن يطهرنا المسيح من خطايانا بصفته إلهاً وأيضاً بصفته ابن الله .

أولاً : بصفته إلهاً :

لأن الخطيئة كامنة في الإرادة ولا يستطيع أن يدفع الإرادة إلى الخير إلا الله وحده. ولهذا يقول أرميا النبي : «ما أخدع قلب الإنسان . وما أخبثه . فمن يعرفه ؟ أنا الرب أفحص القلوب وأمتحن الكلى» (أرميا ١٧ : ٩—١٠) .

ويقول أشعيا النبي : « أنا أنا الماحي معاصيك لأجلي ، وخطاياك لا أذكرها » (اش ٤٣ : ٢٥) .

ويقول القديس لوقا : « من يستطيع أن يغفر الخطايا إلا الله وحده » (لو ٥ : ٢١) .

ثانياً : بصفته ابن الله :

(٣) — وهنا أربع نقط يجب اعتبارها . إن كل خطيئة تمرد على الله وتعد للشريعة وإجحاف بحقوق الله. وقد قال أشعيا : «قد تدنست الأرض تحت

سكانها لأنهم تعدّوا الشرائع ونقضوا الحق ونكثوا عهد الأبد» (اش ٢٤ : ٥).

والحال أن مصدر الشريعة الأزلية والحق الإلهى هو كلمة الله .

فإذن يليق بالمسيح ابن الله أن يغفر خطايانا . كما جاء فى المزمور : « أرسل كلمته فشفاهم ونجاهم من مهالكهم » (مز ١٠٦ : ٢٠) .

(ب) إن نور العقل اشتراك فى الحكمة الإلهية . والحال أن الخطيئة تعمى العقل والعقل هو حكمة الله المغروسة فى الإنسان . كما جاء فى سفر الأمثال « الذين ينشئون الشر إنما هم فى الضلال» (ام ١٤ : ٢٢) .

إذن إصلاح هذا الضلال إنما هو خاص بالحكمة الإلهية ، كما قال الرسول : « إننا نكرز بالمسيح قوة الله وحكمة الله » (١ كور ١ : ٢٣) : « والحكمة هى التى خلصت كل من أرضاك يا رب منذ البدء» (حك ٩ : ١٩) .

(ح) إن الخطيئة تشوه صورة الله المطبوعة فى الإنسان . والحال المسيح هو صورة الله « وكما لبسنا صورة الأرضى . كذلك سنلبس صورة السماوى » (١ كور ١٥ : ٤٩) .

(د) بالخطيئة فقد الإنسان ميراثه الأبدى . وطرد آدم من الجنة رمز لهذا الفقدان (تك ٣ : ٢٣) .

والحال الذى يرث هو الابن : « إذا كنا أبناء فنحن ورثة » (رو ٨ : ١٧) . «ولهذا أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس ليفتدى الذين تحت الناموس لننال التبنى »(غلا ٤ : ٤) .

فالابن البكر . والبرارة ذاتها — قد افتدى جميع إخوته العاقين . فهو

ونحن أبناء لآب واحد فقد كان من اللائق أن يصبح ابنا للإنسان من هو بالطبيعة ابن الله .

المسيح المصلوب :

إن العنوان الذى وضعه بيلاطس على صليب المسيح كان مكتوباً بالعبرانية واليونانية واللاتينية . (يو ١٩ : ٢). وقد كتب العنوان باللغات الثلاث ــ أشهر لغات العصر وأكثرها انتشاراً ليقرأه الجميع فلا يجهله أحد .

فالعبرانية كانت لغة العبادة اليهودية . واليونانية كانت لغة الفلسفة الإغريقية . واللاتينية لغة القوة الرومانية .

فصليب المسيح سوف يجذب إليه هذه النفوس المرموز إليها بتلك اللغات . سوف يخضع صليب المسيح رجال الدين ورجال الفلسفة ورجال الحكم والقوة .

فاللغة العبرانية كانت تشير إلى أن المسيح سوف يخضع له حكمة اللاهوت . لأن معرفة الأمور الإلهية كانت معطاة للأمة اليهودية ومستودعة لديهم .

واللغة اليونانية كانت تشير إلى أن المسيح سوف يخضع له حكمة الفلسفة . وعلوم الطبيعة . لأنها نشأت وترعرعت على يد اليونان .

واللغة اللاتينية تشير إلى أن المسيح سوف يخضع له حكمة الآداب والشريعة التى نمت وتطورت على يد الرومان .

وهكذا فإن كل العقول ستصبح فى آخر الأمر تحت سلطة المسيح

وإمرته على حد تعبير القديس بولس : « ونسبى كل بصيرة إلى طاعة المسيح » (٢ كور ١٠ : ٥) .

انتصار على الخطيئة وعلى الشيطان :

« والغلبة التى يغلب بها العالم هى إيماننا » (١ يو ٥ : ٤) . إننا نتحرر من الخطيئة ومن أثقالها ومن سلطان رئيس هذا العالم إذا كنا نؤمن بالمسيح ونثق برحمته اللامتناهية . وفى هذا يقول القديس بولس : « فى الابن الحبيب الذى لنا فيه الفداء بدمه مغفرة الزلات على حسب غنى نعمته » (أفس ١ : ٧) .

فمن المعروف أن الخطيئة تتنافى مع العدل كما يتعارض الموت مع الحياة . ولكن بالمسيح أرجع لنا الله النعمة . وكذلك القصاصات المتوجبة على الخطيئة قد رفعت عنا كما جاء فى (١ بط ١ : ١٨) : « إنكم لم تفتدوا بما يفسد من الفضة أوالذهب من تصرفكم الباطل على حسب سنن آبائكم . بل بدم كريم دم حمل لا عيب فيه ولا دنس وهو المسيح » .

ثم قد تحررنا خاصة من عبودية الخطيئة بواسطة موت المسيح على الصليب : « هذا هو حمل الله الذى يرفع خطايا العالم » (يو ١ : ٢٩) . « وكان ينبغى للمسيح أن يتألم وأن يقوم فى اليوم الثالث من بين الأموات . وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا فى جميع الأمم » (لو ٢٤ : ٤٦).

وقد أسهب القديس توما فى كلامه عن الغلبة التى أحرزها المسيح على الشيطان فقال : « لقد جاء المخلص ليبطل بموته من كان له سلطان

على الموت أعنى إبليس » (عبر ٢ : ١٤) . فما معنى القول : « أبطل إبليس » ؟ معناه أن المسيح لم يبطل جوهر الشيطان . فجوهره روحانى لا يقبل الفساد . ولم يبطل شره وتجاربه بحيث يعود الشيطان إلى صنع الخير (كما كان يقول أوريجين) وإنما معناه أن المسيح أبطل سلطان إبليس على الموت كما قال يوحنا الرسول : « لقد حضرت دينونة هذا العالم، الآن يلقى رئيس هذا العالم خارجاً » (يو ١٢ : ٣١) . وكما قال بولس الرسول : « وخلع الرئاسات والسلاطين وشهرهم بأبهة ظافراً عليهم فيه » (كولوسى ٢ : ١٥) .

والقديس أغسطين يقول : « إن الذين يحبون الله كل شيء يعاونهم للخير » حتى الخطيئة . وليس طبعاً بمعنى أن الخطيئة تكون علة الخير إذ أن الخطيئة هى الشر عينه . ولكن بمعنى أن الخطيئة تعطينا دائماً فرصة للتواضع وللارتماء فى أحضان الحب الرحيم » .

فهجمات الشيطان إذن إنما تقوى البار فى ممارسة الفضائل اللاهوتية الثلاث : الإيمان والرجاء والمحبة . فإن الله يعرف أن يستخرج الخير من الشر .

ثالثاً ــ القيامة والصعود

القيامة :

إن آلام المسيح لا تستمد معناها وقيمتها إلا بالقيامة . والله لم يسمح بهذه الآلام ولم يرض بها إلا من أجل هذه القيامة المجيدة التى تتوج حياة المسيح الأرضية .

وهنا يميز اللاهوتيون بحق بين الفداء الموضوعى والفداء الذاتى .

فالموضوعى : هو كل ما قام به المسيح من أعمال خلاصية .

والذاتى : — ويسمى أيضاً التبرير — هو تخصيص هذه الأعمال الخلاصية لكل واحد منا بواسطة ممارستنا الفضائل وقبولنا الأسرار المقدسة .

و يجب أن نعرف جيداً أن قيامة المسيح إنما تخص جوهرياًّ عمل الفداء الموضوعى فبدون هذا الفداء الموضوعى ما كان الفداء فداء حقيقيا .

صحيح أن مشهد الجلجلة يلقن الإنسان المذنب درساً قاسياً فى العدالة .

وصحيح أن مشهد الجلجلة يلقن الإنسان الأنانى درساً فى التجرد والحب .

ولكن بغض الطرف عن هذه العواطف والاعتبارات الذاتية . فإن لذبيحة الجلجلة قيمة موضوعية أساسية تنتج من العمل الفدائى نفسه . فما هى هذه القيمة الموضوعية ؟ هى وسائل المصالحة والخلاص أعنى الأعمال التى قام بها المسيح .

فالقيامة كانت قطعاً تمجيداً واجباً بالمخلص نفسه كما قال الرسول : « وضع نفسه وصار يطيع حتى الموت موت الصليب . فلذلك رفعه الله ووهبه اسماً يفوق كل اسم لكى تجثو باسم يسوع كل ركبة مما فى السموات وعلى الأرض وتحت الأرض » (فى ٢ : ٨) .

والقيامة لم تكن تمجيداً للمسيح وحده . بل كانت تمجيداً لنا أيضاً . لأن المسيح هو رأس الجسم السرى . ومجد الرأس هو مجد الأعضاء والرأس لا يتمجد بمعزل عن الأعضاء .

وبعبارة أخرى: إن فداءنا ليس مجرد مفهوم نظرى مهما بلغ سمو هذا المفهوم وثراؤه . ومهما تعددت جوانبه . إنما فداؤنا يقوم فى شخص حى ، شخص ابن الله المتجسد .

فالمسيح ليس شخصاً بشرياً بل هو شخص إلهى هو الأقنوم الثانى من الثالوث الأقدس . ولكنه مع ذلك هو إنسان . إنسان حقيقى . مات وقام منتصراً على الموت بصفته رأس الجسم السرى .

هو فادى جميع البشر. إنه يجذب الجميع بقيامته .

عند الله ألف سنة كيوم واحد . وكل شىء حاضر أمامه منذ الأزل . فلا ماضى ولا مستقبل عنده . ولهذا يصبح جميع البشر مع المسيح ومن أجل المسيح قائمين من الموت . أما إذا لم تكن هذه القيامة لبعض الناس قيامة للحياة والسعادة الأبدية. فعلى من يقع الذنب ؟ ليس الذنب ذنب الفادى لأنه سفك دمه ، كل دمه ، إلى آخر نقطة من أجل الجميع . وإنما الذنب ذنب الذى لم يعرف أن يستفيد من دم المسيح .

إن القديسين فى السماء يشتركون فى مجد الكلمة المتجسد وسعادته بموجب آلامه وموته وقيامته وصعوده وجلوسه عن يمين الآب : « به كان كل شىء من أجل خلاصنا». وخلاصنا هو تمجيد للآب والابن والروح القدس .

وقد أشار القديس توما من بعد القديس بولس إلى هذا الترابط بين أسرار الخلاص الكبرى. فعلّم بأن المسيح خلصنا بواسطة صليبه . كما خلصنا أيضاً بواسطة قيامته وصعوده . لقد هزمت قيامة المسيح موت الجسد

كما هزمت أيضاً موت الخطيئة ؛ وفى هذا قال بولس الرسول :

«ونحن نؤمن بالذى أقام يسوع ربنا من بين الأموات الذى أسلم لأجل زلاتنا وأقيم لأجل تبريرنا . . . » فكما أقيم المسيح من بين الأموات بمجد الآب كذلك نسلك نحن أيضاً فى جدة الحياة » (رو : ٤ : ٢٤ و ٦ : ٤) .

وبقيامته أقيم المسيح لنا برًّا وسلاماً . أو بالاختصار أقيم نداء لنا . وكثيراً ما يلح القديس توما فى هذه النقطة لأهميتها . فكتب يقول : « هى قيامة المسيح التى تعتبر أساساً وسبباً لكل قيامة على حسب قول الرسول :

« إن المسيح قد قام من بين الأموات وهو باكورة الراقدين (الأموات) لأنه بما أن الموت بإنسان فبإنسان أيضاً قيامة الأموات (١ كور ١٥ : ٢٠) وهذا هو عين الصواب لأن كلمة الله مبدأ لكل حياة بشرية . . . فإن كلمة الله أقام أولاً جسده ، وبقيامته تقوم الأجساد الأخرى .

ولكن قيامة الأجساد ليست كل شيء ! فهناك أيضاً وقبل كل شيء قيامة النفوس التى ماتت بالخطيئة . وفى هذا يقول القديس توما : «تعمل قيامة المسيح بموجب اللاهوت وبذلك يمتد عملها لا إلى قيامة الأجساد فحسب بل إلى قيامة النفوس أيضاً المائتة بالخطيئة . أجل! على النفس أن تحيا لله بواسطة النعمة كما يحيا الجسم بواسطة النفس » .

إذن فقيامة المسيح كانت آلة فعالة لقيامة الأجساد والنفوس أيضاً . وقيامة المسيح ترمز كذلك إلى قيامة النفوس لأنه من أهم واجباتنا أن نتشبه

روحيًّا بالمسيح القائم من بين الأموات كما يقول الرسول بولس : « نعلم أن المسيح بعد أن أقيم من بين الأموات لا يموت أيضاً لا يسود عليه الموت من بعد . . . فكذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً للخطيئة أحياء لله بربنا يسوع المسيح » (رو ٦ : ٨) .

ولا يخشى القديس توما أن يصرّح فى قوة قائلاً :

« كثير من الأسرار المسيحية يجب تأملها فى المسيح ولا سيما سر القيامة. لأنه على القيامة يترتب الدين المسيحى كله حسب قول رسول الأمم : « إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله قد أقامه من بين الأموات فإنك تخلص » (رو ١٠ : ٩) .

الصعود :

« بالصليب إلى النور والمجد » .

يطبق القديس توما على الصعود ما سبق وقاله عن القيامة . فيقول : « بصعوده إلى السموات اكتسب المسيح إلى الأبد لنفسه ولنا حق الدخول فى السماء . وشرف الموطن السماوى » .

وقال أيضاً :

« إن آلام المسيح وموته على الصليب هى علة استحقاقية غير مباشرة لصعودنا إلى السموات . إذ قد أزالت عقبة الخطيئة . أما صعوده فهو علة مباشرة لصعودنا . لأن صعود الرأس يتطلب صعود الأعضاء المتحدة به » .

ثم بيّن القديس توما بعد ذلك أن الصعود ثمين للغاية من حيث

اندماجنا فى سر الفداء (أى بممارسة الإيمان والرجاء والمحبة وباحترامنا وعبادتنا للمسيح الذى يعتبر الآن شخصاً إلهيّا سماويًّا لا أرضيًّا .

ثم بيّن القديس توما كيف أن صعود المسيح هو موضوعيًّا سبب خلاصنا فيقول : لقد عرّفنا يسوع المسيح الطريق . ولما كان هو الرأس وجب على الأعضاء أن تسير فى طريقه . فقد قال « إنى منطلق لأعدّ لكم مكاناً . وإذا انطلقت وأعددت لكم مكاناً آتى وآخذكم إلىّ لتكونوا أنتم حيث أكون أنا » (يو ١٤ : ٢) .

وكما كان فى العهد القديم يدخل رئيس الأحبار إلى قدس الأقداس ليتضرع إلى الله من أجل الشعب . فكذلك المسيح دخل السماء « ليتراءى أمام وجه الله من أجلنا » (عبر ٩ : ٢٤) .

فالمسيح فى السماء بموجب ناسوته هو شفيع حى من أجلنا .

فالآب يتحنّن قطعاً على من تجسد الابن من أجلهم . فالمسيح فى السماء هو سيد ورب يوزع مواهب الله على جميع البشر دون استثناء .

وجلس عن يمين الآب :

إن الصعود إلى السماء يستدعى الجلوس عن يمين الآب .

والجلوس عن يمين الآب يجب أن يؤخذ هنا بالمعنى الرمزى . فيكون المقصود أن المسيح يشترك فى المجد والسلطان والسعادة مع الآب .

إن المسيح بصفته إلهاً إنما يشترك طبعاً منذ الأزل مع الآب والروح القدس فى المجد والسلطان والكرامة والسعادة .

وبصفته إنساناً فإنما يمتلك على كل الخيرات الإلهية على نحو أكمل من بقية الخلائق . ثم يوزعها على أعضاء جسمه السرى .

فمن يشترك فى آلام المسيح وموته يتمجد أيضاً معه حسب قول الرسول : « وحيث نحن أبناء فنحن ورثة . ورثة الله . وارثون مع المسيح إن كنا نتألم معه لكى نتمجد معه » (رو ٨ : ١٧) .

ولا يستطيع أحد غير الله أن يمنح السعاد للنفوس باشتراكها فى سعادته الخاصة . وإنما قيادة الناس إلى هذه السعادة هى من عمل المسيح بصفته الرأس والمخلص . وفى هذا يقول الرسول : « وإنما نرى يسوع مكللاً بالمجد والكرامة — وقد نقص عن الملائكة قليلاً — لأجل ألم الموت لكى يذوق الموت بنعمة الله من أجل الجميع . لأنه لاق بالذى كل شىء لأجله وكل شىء به وقد أورد إلى المجد أبناء كثيرين أن يجعل مُبدئ خلاصهم بالآلام كاملاً . لأن المقدس والمقدسين كلهم من واحد » (عبر ٢٥ : ٩ — ١١) .

وفى السماء سيكون المسيح الفادى إلى الأبد كلاً فى الكل . والقديسون فى الوطن السماوى لا يحتاجون بعد إلى كهنوت المسيح ليطهرهم لأنهم أطهار . وإنما كالمتسولين سوف يحتاجون إلى إنعامات مستمرة ومتواصلة . لأن مجدهم من مجده : « لا حاجة للمدينة إلى الشمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها لأن مجد الله أنارها ومصباحها الحمل » (رؤ ٢١ : ٢٣) .

الفصل الثالث

الوفاء بالإنابة

أولية الرحمة

إننا نستعرض الآن سر الفداء من جوانب عديدة : جانب التكفير وجانب الاستحقاق وجانب الفدية وجانب الذبيحة . ولا يجب أن ننظر إلى هذه المفاهيم المتعددة كأنها مجموعة أجزاء متتابعة تكوّن كلاً أوسع من أجزائه . وإنما هى بالأحرى عدة تعريفات تدور حول موضوع واحد : محبة المسيح التى تتجلى فى آلامه .

أولا ــ سلطة الكنيسة

إن مستندات الكنيسة تعلن عن تعليمها فيما يخص « تكفير المسيح من أجل خطايا البشر » أو كما يسمى فى علم اللاهوت « الوفاء بالإنابة » .

فقد جاء فى مجمع أفسس المنعقد سنة ٤٣١ ما نصه :

« من قال إن يسوع المسيح قدم ذاته قرباناً عن نفسه وليس عنا فقط (لأن المسيح الذى لم يعرف الخطيئة لا يمكن أن يكون فى حاجة إلى قربان وذبيحة) فليكن محروماً » .

وقد جدّد المجمع التّرد نتيني فى الجيل السادس عشر هذا التعليم نفسه بقوله :

« من قال إن الخطيئة الأصلية يمكن رفعها بدواء آخر خلاف استحقاق الوسيط الوحيد يسوع المسيح ربنا الذى صالحنا مع الله بدمه . فصار لنا حكمة وبرًّا وقداسة . فليكن محروماً ». وقال أيضاً فى الجلسة ٦ ف ٧ :

«إن علة تبريرنا هو سيدنا يسوع المسيح الذى لفرط محبته التى أحبّنا بها بينما كنا نحن أعداءه ، استحق لنا نعمة التبرير بآلامه وموته على خشبة الصليب ووفّى عنا لله الآب» .

التعليم الرومانى :

يبحث بإفاضة فى هذا الموضوع ونحن نقتطف منه بعض الأجزاء :

« ما ألزم معرفة سر الفداء وما أوجب على راعى النفوس الاعتناء بحث المؤمنين على ذكر آلام الرب حتى إذا انتعشوا بذكر إحسان الله يقبلون إلى محبته وجوده » . . . .

«ليطلّع المؤمنون أقله على أصول هذا السر . لأن ديانتنا المسيحية وإيماننا يستندان إلى هذا الجزء من قانون الإيمان كأنما على أساس . . . لا شك فى أن سر الصليب يعد أشكل المشاكل إذ بالجهد نستطيع أن ندرك أن خلاصنا منوط بالصليب نفسه وبمن علق عليه لأجلنا . ولكن يجب علينا فى هذا الأمر أن نعجب من عنايته العظيمة كما أفاد الرسول « لأنه إذا

كان العالم وهو فى حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة . حسن لدى الله أن يخلص بجهالة الكرازة الذين يؤمنون » . . .

« إن المسيح لم يعمل شيئاً مكرهاً أو مضطرًّا ، ولكنه أراد أن يقدم نفسه راضياً مختاراً وقاسى بإرادته كل العذابات المرة ظلماً . . . فمن ثم يمكننا أن ندرك محبة يسوع المسيح لنا واستحقاقه العظيم لأجلنا » .

وردًّا على السؤال الآتى : لماذا شاء المسيح الرب أن يحتمل آلاماً شديدة للغاية ؟

يجيب التعليم الرومانى :

« لأن ابن الله مخلصنا قصد أن يفدى خطايا الأجيال كلها ويمحوها . ويكفّر لأبيه عنها تكفيراً وافياً فائضاً » . . . إن المسيح وفّى عنا عقاب خطايانا وصالحنا مع الآب وأحنى رأفته إلينا وسكّن غضبه إذ كانت آلامه وموته أحب وأرضى ما يمكن أن يقدم الله من القرابين والذبائح . . . لقد دفع عنا ثمناً لا يوازى فقط ما علينا من الدين بل يزيده كثيراً . ثم لأنه ذبيحة مقبولة ومرضية لله أعظم قبولاً وأحسن رضى إذ قدمها له الابن على مذبح الصليب وسكّنت غضب الله ورجزه تماماً وقد ذكر ذلك رسول الأمم بقوله : «لقد أحبنا المسيح وبذل نفسه لأجلنا قرباناً وذبيحة لله رائحة مرضية » (١ ف ٥ : ٢)[١] .

وقد صرح البابا بيوس الثانى عشر سنة ١٩٥٦ فى البراءة الرعوية المصدرة بكلمة « استقوا الماء » قال :

---

(١) التعليم الرومانى ، الجزء الأول ، الفصل الخامس ، رقم ١ — ١٥ .

«إن سر الفداء هو أصلاً و بطبعه سر حب . حب المسيح لأبيه. و بسبب هذا الحب قدم المسيح لله ذبيحة الصليب فوفّى عنا وفاء كاملاً وفائضاً» .

ثانياً – هل هو عدل انتقامى ؟

إن عدل الله لم يقتصّ من المسيح انتقاماً منه ؟ ولم ينتقم من الخطأة فى شخص المسيح . فالآلام والأوجاع التى حلت بالمخلص لم تكن قصاصاً انتقاميًّا . وهذه النقطة الجوهرية برغم سلبيتها تسترعى الانتباه .

وقد أوضح القديس توما هذه المسألة فى القياس الآتى :

إن توقيع القصاص على البرىء بدلاً من المذنب ظلم فظيع .

والحال أن المسيح برىء . بل هو البراءة عينها .

فإذن من المستحيل أن يكون المسيح قد ذاق الآلام والموت بدلاً منا بموجب العدل الانتقامى . ومن المستحيل أن يكون موضع غضب الآب فى هذا الحين[1] .

إن توقيع القصاص على البرىء بدلاً من المذنب ظلم فظيع :

فى شرحه لنص بولس الرسول : « إنا لا نستطيع شيئاً ضد الحق بل

---

(١) لا يخفى على أحد أنه من غير المعقول أن ينسب إلى الله شهوة الغضب . وأن تضمن الكتاب المقدس مثل هذه العبارات (غضب الله) فلا يقصد بها إلا المعنى المجازى .

وقد تؤخذ العبارة أحياناً بالمعنى الحرفى – وإنما طبعاً بالتماثل – فى هذه الحال تفيد : قضاء عدل الله من حيث يريد الانتقام من الخطيئة. (الخلاصة اللاهوتية ق ١ – ٢ س ٤٧ ف ٦) .

لأجل الحق » (٢ كور ١٣ : ٨) يقول القديس توما : « من الواضح أنه لو وقّعنا القصاص على البرىء فإننا نسير ضد الحق وضد العدل . والرسول بولس لا يستطيع شيئاً ضد الحق بل لأجل الحق أى العدل . فمن البيّن إذاً أنه لا يعاقب بريئاً » .

ويقول أيضاً : « ليس فى شريعة العين بالعين والسن بالسن من ظلم فادح . وإنما الظلم كل الظلم الإساءة إلى البرىء . . . فإن من يقتل بريئاً يسىء ليس فقط إلى ضحيته بل يسىء إلى الله والمجتمع أيضاً شأنه شأن من يقتل نفسه » .

ورداً على السؤال : « هل يؤخذ الواحد بخطيئة غيره » ؟ يجاوب القديس توما فى الخلاصة اللاهوتية ق ١ ـــ ٢ س ٧٨ قائلاً : « إن أردنا بذلك ، العقاب المنزل قصاصاً على الخطيئة من حيث هو انتقامى . فإنما يؤخذ كل بخطيئته لأن فعل الخطيئة أمر شخصى » .

وقال أيضاً : « حينما يعاقب البرىء لا يتألم طبعاً من أجل ذنب جناه . وإنما يتألم من الوجع الذى يقاسيه . ويزيد ألمه معرفته أنه برىء وأنه ضحية الظلم والجور . وفى هذه الحالة يكون ذنب الجانى أفظع إن لم يستعمل الشفقة والرحمة مع فريسته » .

والحال أن المسيح برىء بل هو البراءة عينها :

لقد كان المسيح خالياً من كل إثم ، نقيًّا من كل شائبة ، طاهراً من كل دنس لأنه إله . وقد حمل المسيح متاعب الطبيعة البشرية وآلامها

التى لا تتنافى مع كرامته كإله ورسالته كفادى (مثل الجوع . والعطش. والتعب . والنوم . والآلام المبرحة) « صار مثانا فى كل شىء ما عدا الخطيئة » .

ولماذا تحمل المسيح مثل هذه الآلام ؟ لثلاثة أسباب :

أولاً : للتكفير عن خطايانا . ثانياً : ليبرهن على حقيقة طبيعته البشرية . ثالثاً : ليعطينا المثل فى الفضيلة .

والحال لو وجدت الخطيئة فى المسيح لكانت عائقاً فى سبيل التكفير عن خطايانا . ولما استطاع أن يعطى المثل فى الفضيلة

فإذن من المستحيل أن يكون المسيح قد ذاق الآلام والموت بدلاً منا بموجب العدل الانتقامى :

إن الذين قتلوا المسيح ارتكبوا إثماً ضد العدل . لأنه لم يكن عليه ما يوجب الألم والموت . وقد قال القديس توما : إن المسيح بآلامه وموته أخلى ذاته وانحطت كرامته . والأعجب من ذلك أنه لم يكن مستحقاً للألم والموت . فقد كان بريئاً خالياً من كل معصية وإثم . وإنما احتمل كل هذه الإهانات بإرادته ليكفر عن خطايانا .

فسبب موت المسيح إذن لم يكن نتيجة الخطيئة — لا خطيئته — (فقد كان خالياً منها) . ولا حتى خطايانا . وإنما الحب وحده هو سبب

موته على الصليب . أما الخطيئة فهى مجرد فرصة فقط [١] .

وهنا يجب أن نتجنب تشبيه المسيح الفادى بالأسير البرىء ، فى توضيح فكرة التكفير . فلو تقدم إنسان بعرض اختيارى يقترح فيه ويطالب بالإنابة عن أحد المحكوم عليهم بالإعدام . فإن هذا الإنسان سيروح قطعاً — إذا استجيب إلى طلبه — ضحية المحبة . وبموته سينقذ المحكوم عليه بالإعدام من القسوة والظلم إن كان بريئاً ومن العدل إن كان مجرماً أثيماً .

ففى الفرض الأول أى المطالبة بالإنابة عن البرىء وإيقاف القسوة والظلم ، عمل بطولى . وفى الفرض الثانى أى المطالبة بالإنابة عن المجرم وإيقاف العدل ، عمل جنونى . ولكن فى كلا الفرضين تكون السلطة مخطئة لو استجابت لطلبه وأقبلت على قتل طالب الإنابة . لأن فى قتل البرىء ضراوة ووحشية وهمجية بغيضة . ولا يمكن أن ترضى العدالة بمثل هذا الاستبدال وتقوم بمثل هذه الوحشية .

---

(١) فرق شاسع بين العلة والفرصة . فالعلة تؤثر تأثيراً وضعياً ومباشراً فى المعلول . أما الفرصة فهى مناسبة أو ظرف من الظروف يسمح للعلة بإتيان العمل .

مثلا : إن فتح الباب ليس علة لدخولك الحجرة . إنما هو مجرد فرصة .

أما السير على أقدامك فهو علة دخولك الغرفة (لأن السير أثر على الدخول) .

فالخطيئة ليست سبباً مباشراً وضعيا لموت المسيح . إنما هى مناسبة فقط (occasion) . أما الذى دفع بالمسيح إلى الموت فهو حبه لنا . وإذا قيل أحياناً « إن الخطيئة سببت موت المسيح » . فيجب ألا يفهم ذلك بمعنى العلة . وإنما يجب فهمه بمعنى الفرصة أو المناسبة . لأن الخطيئة لا تستطيع أن تؤثر إطلاقاً على المسيح فى أى شىء .

فكذلك جميع البشر أخطأوا وزاغوا وفسدوا . أما المسيح فهو البراءة عينها . والسلطة الإلهية هى أحكم سلطة وأكثرها عدلاً . بل هى الحكمة بالذات والعدل بالذات . فهل يعقل أن العدل بالذات وباسم العدل ، يقوم بتنفيذ حكم الموت فى المسيح البرىء . حاشا أن يكون ذلك . فما أبعد الله عن الظلم والجور .

وعلى هذا لا يمكننا الموافقة على قول لوثر وكالفين وبعض الوعاظ المشوهين لوجه الحقيقة بأن المسيح البرىء صار خطيئة من أجلنا بحيث إن الرحمة أصبحت مقيدة ، مغلولة ، عاجزة عن العمل . وبحيث إن المسيح ناب عنا فى القصاص بموجب العدل للإنتقام .

فهذه الإنابة إذا فهمت على هذا النحو لا تكون سرًّا من أسرار الله وإنما تصبح جهلاً بعدل الله. وخروجاً على أبسط قواعد الآداب وتناقضاً صارخاً.

إن الوفاء بالإنابة الذى قام به المسيح لا يُفسَّر إلا بمفهوم الحب وبمفهوم العدل الممزوج بالحب تحت علامة الرحمة والحنان .

ثالثاً ــ تحديدات أساسية

لابدّ هنا من التحليل الوجيز لبعض التحديدات الأساسية فى الموضوع كالخطيئة ، والتعويض ، والتكفير بالنيابة .

الخطيئة والتعويض :

إن الخاطئ بتمرده على الله يهين جلالته إذ من غير حق يترك الخير

المطلق ويلتفت إلى الخير النسبي . والخاطئ يتعدى شريعة الله فيخالف الترتيب الذى وضعه الله . فالخطيئة من جهة الله هى إهانة له واستهتار بكرامته .

أما من جهة الخاطئ فهى ذنب يقال له على سبيل الاستعارة « وصمة فى النفس » . وقد قال القديس توما فى الخلاصة اللاهوتية : « إن النفس تتدنس بالتصاقها بالسفاسف على وجه ينافى نور العقل والشريعة الإلهية » .

فكيف نعوض عن هذه الإهانة ؟ وكيف نتطهر من هذه الوصمة الأدبية ؟

— بالرجوع إلى الله والتكفير عن الآثام .

الرجوع إلى الله أولاً : لأن القداسة تقوم فى الاتحاد بالله وهذا الاتحاد هو من عمل الإرادة المتحركة تحت تأثير النعمة . فعلى الخاطئ أن يقطع الرباط الذى يربطه بالخليقة لكى يتسنى له الرجوع إلى الله . إذن فعليه أن يقبل بحب وخضوع ترتيب العدل الإلهى . ذلك هو الرجوع إلى الله .

وثانياً : إن الخاطئ يستحق العقاب . والقديس توما يعطى سبباً وجيهاً لذلك فيقول :

« إن تعدى ترتيب العدل الإلهى لا يرجع إلا بالعقاب . فمن اتبع هوى إرادته بأكثر مما ينبغى . ففعل ما ينافى أمر الله يسام راضياً أو كارها شيئاً على خلاف إرادته . وبهذا تحصل موازنة العدالة . . .

« والتكفير يستلزم العقاب تعويضاً عن اللذة المحرمة فى الخطيئة » .

« وإنه من حقيقة العقاب أن يكون ضد الإرادة »[1] .

والحال أن الخاطئ يحتمل العقاب إما كارهاً مضطرًّا أو راضياً مختاراً. وهنا يميز القديس توما فى العقاب ، بين العقاب لأجل الذنب وبين العقاب من أجل التكفير .

فالأول هو الذى يفرض على الخاطئ فرضاً لتعلقه بالخطيئة . والثانى هو الذى يسام اختياريًّا من أجل خطيئة ندم عليها فيتقبل العقاب مستسلماً لمقتضيات العدل .

وهنا لابدّ من تفهم المبدأ الأساسى فى حقيقة التكفير :

إن حقيقة التكفير لا تقوم أصلاً فى احتمال العقاب وإنما فى الحب. فالعقاب من أجل التكفير لا قيمة له إطلاقاً إلا إذا قبل حبًّا فى الله. وفى هذا يقول القديس توما : « هى المحبة التى تجعل الأعمال التكفيرية مقبولة لدى الله . وبدون المحبة لا قيمة لأعمالنا » .

والعقاب لائق لأنه تكفير عن اللذة المحرمة وترجمان التوبة وحافظ لقوتها . بالعقاب يشترك الإنسان كله فى التكفير . إلا أن قيمة العقاب من أجل التكفير لا تقاس إلا بمقياس المحبة . والعقاب أو الألم المقبول طوعاً ليس ترجمة التكفير وحسب بل هو علامة الحب . هو ضرورة من ضرورياته .فالذى يحب يتوق إلى البذل والتضحية . وكلما ارتفعت درجة المحبة ارتفعت معها المقدرة على تحمل الألم والتضحية. فالعقبات والصعوبات

---

(١) يجب التمييز بين العقاب المنزل قصاصاً على الخطيئة تعويضاً عن الإهانة الملحقة بالله وبين العقاب الدوائى الذى يقصد بها تقديس النفس . وكلا العقابين مكملان بعضهما لبعض .

— إذا تغلب عليها الإنسان — كانت علامة بل فرصة بل آلة للاستحقاق. ولكن السبب الرئيسى فى الاستحقاق هو الحب.

وعلى هذا قالت القديسة تريزا دافيلا : « إن قيمة البذل والتضحية لا تقاس بجلائل الأعمال أو حقارتها وإنما تقاس بقدر المحبة ».

والمبدأ الأساسى فى أولية المحبة للتكفير غنى بالتطبيقات الأدبية : وعلى هذا يمكن القول : بأنه كلما كان الحب قوياً طاهراً ، انتقصت ضرورة العقاب من جهة العدل بحيث يكون فى الإمكان تحقيق التكفير بالحب من غير الألم والعقاب . فإذاً توجد معادلة رياضية بين الحب والعقاب : فكلما زاد الحب نقص العقاب . وكلما نقص الحب زاد العقاب .

وهذا صحيح أيضاً من الناحية السيكولوجية : فكلما زاد حبنا نقص ألمنا . وفى هذا يقول القديس أغسطين : « ليس من عمل شاق على القلوب المحبة . إن القلوب المحبة تجد فى المشقات لذة كما نرى ذلك فى المولعين بالقنص والصيد والتجارة . . . لأنه حين يحب الإنسان أمراً فإما أنه لا يتألم منه أو أنه يحب الألم الناشئ عنه . وبوجيز العبارة : المحب لا يتعب . وإذا تعب — أحب التعب » .

إن الحب يصنع ما لا يستطيعه العقل وحده أن يعمله . . .

إذن فى عنصر المحبة من أجل التكفير أمل وتوازن وتفاؤل من كل الوجوه .

لا ينبغى محاكاة الأمور الإلهية بالأمور البشرية :

إن التكفير هو وفاء الدين بطريق المقاصة (Compensation) [1] وقد يكون لهذا التكفير ، فى محيط العلاقات البشرية ؛ طابعاً عينيًّا أو شخصيًّا . (Réel ou personnel =) .

فالعينى : يتركز فى شيء مادى . مثلاً : لو ألحقت ضرراً بشخص فى خيراته فأنت ملتزم بالرد (Restitution) .

والشخصى : يتركز فى شخص . فلو ألحقت ضرراً بصيت القريب فأنت ملتزم بالتعويض (Réparation) وقد يكون أحياناً التعويض عن طريق المال . وإنما فى هذه الحالة لا يعتبر دفع المال ردًّا بل يعتبر تعويضاً عن الصيت .

هذا فى العلاقات البشرية . أما بالنسبة لله وبالمعنى الحصرى . فنحن غير ملتزمين إطلاقاً بالرد (restitution) . لأن الخطيئة لا تلحق ضرراً بكمالات الله وصفاته اللامتناهية . وإنما نحن دائماً مكلفون بالتعويض لأن الخطيئة إهانة موجهة إلى عناية الله وتدبيره . بل تلحق ضرراً بحقوقه علينا .

وقد سبق أن قلنا إنه لا يوجد عدل تبادلى فى علاقاتنا مع الله : ولا بالنسبة لعلاقة الله معنا . ولذا يقال : التعويض لله . والرد للبشر .

ولتوضيح الفكرة يجب أن نسوق بعض النصوص من الكتاب المقدس

---

(١) المقاصة فى القانون : طريقة لانقضاء الالتزام تفترض أن المدين صار دائناً لدائنه بدين آخر غير الدين الأول الذى هو مدين به . وترتب على تقابل الدينين انقضاؤهما بمقدار الأقل منهما (سليمان مرقس : المدخل للعلوم القانونية) ص ٢٠٣ سنة ١٩٤٧ .

ومن القديس توما الاكويني .

« البنون يلتقطون الحطب والآباء يوقدون النار والنساء يعجن الدقيق ليصنعن أقراصاً لملكة السماء ويسكبن سكباً لآلهة أخر لكي يسخطوني . لعلهم يسخطوني يقول الرب ؟ أليس ذلك على أنفسهم لخزى وجوههم » . (أرميا ٧ : ١٨ — ١٨) .

« تطلع إلى السماء وانظر وتأمل السحب إنها أرفع منك . فإن أنت خطئت فماذا تؤثر فيه . وإن أكثرت من المعاصي فماذا تلحق به . وإن بررت فماذا تمن عليه وماذا يأخذ من يدك ؟ إنما نفاقك يضر إنساناً مثلك وبرك ينفع ابن آدم » (أيوب ٣٥ : ٥ — ٨) .

والقديس توما يصرح في عمق ودقة :

بأن الخطيئة التي ترتكبها لا تلحق ضرراً بالله ولا تمسه بأذى . وإنما الخطيئة تؤذينا نحن وتلحق بنا الضرر من حيث إننا نعمل ضد خيرنا . ولو كان في مقدورنا أن نرد الحق المثلوب إلى ذويه لوجب علينا أن نرده لذواتنا لأننا بتمسكنا بالخير الزائل إنما نحرم أنفسنا من الخير الدائم .

ولكن هل نمتلك شيئاً خاصاً بنا لنرده إلى الله . فما أفقرنا ! « أي شيء لك أيها الإنسان ولم تستعره من الله » . ولهذا نحن ملزمون أقله بأن نكفر عن آثامنا إن كنا لا نستطيع أن نرد الحقوق المثلوبة لأننا بارتكابنا المعاصي نحن على الأقل نلحق بالله الإهانات الفظيعة . ودونك نصوص القديس توما :

« إن الخاطئ لا يستطيع بخطيئته أن يلحق ضرراً بالله . لكنه يذنب

إليه من جهته على نحوين : أولاً من حيث يستهين به بتعديه أوامره . وثانياً من حيث ينزل ضرراً بنفسه أو بغيره وهذا يرجع إليه تعالى من حيث إن الذى يلحق به ضرراً مستظل في عنايته تعالى وكنفه[١] » .

ويقول أيضاً :

« إن فعل الإنسان لا يمكن أن يلحق بالله ذاته نفعاً أو ضرراً . لكن الإنسان من جهة نفسه يسلب الله شيئاً أو يؤدى له شيئاً برعايته أو مخالفته الترتيب الموضوع من الله »[٢] .

وبالاختصار أن الله — وبالذات لأنه الله — لا يطلب منا الرد ليرجع إلينا صداقته . إنه ليس بكاتب حسابات ! وفى الواقع نحن لا نعطيه شيئاً إلا وقد سبق وأخذناه منه .

فالرجوع إليه والتكفير عن آثامنا لا يكونان بدون المحبة : وهى من ثمار الرحمة الإلهية . فالتكفير والتضحية أداة تثب بنا إلى التصاعد وتؤدى إلى التطهير وتزيد من المحبة . وبهذا تتهيأ النفس لأن تتغنى إلى الأبد بمراحم الله ، وتتحقق مقتضيات المحبة والعدل معاً . وإنما المحبة أولاً[٣] .

(١) الخلاصة اللاهوتية : ق ١ — ٢ س ٤٧ ف ١ رداً على ١ .

(٢) الخلاصة اللاهوتية : ق ١ — ٢ س ٢١ ف ٤ رداً على ١ .

(٣) إن الهالكين فى جهنم يتصل تمردهم باطراد ويتجدد كل حين وإلى الأبد . وبهذا يصبحون ضحية العدل الانتقامى الخالى من الحب . وهم على رغم ذلك يمجدون الله من جهة العدل وحده مكرهين مرغمين وسط العذابات الأبدية . فى الجحيم لا يوجد تكفير على الإطلاق.

أما فى المطهر فيوجد التكفير . والعقاب فيه يؤدى إلى التطهير وهو من ثمار العدل والمحبة معاً من جانب الله ومن جانب النفس . والحب هو الذى يسيطر فى الجانبين .

التكفير بالإنابة :

وأحسن القديس توما تعريف ذلك بقوله :

« إن أردنا بالعقاب : العقاب المنزل قصاصاً على الخطيئة من حيث هو انتقامى . فإنما يؤخذ كل بخطيئته لأن فعل الخطيئة أمر شخصى . وهو عقاب عادل . ولكن إن أردنا العقاب التكفيرى الذى يسام اختياراً فقد يحدث أن يتحمل الواحد عقاب غيره »(١) .

والذى يطالب بتقديم نفسه بديلاً عن شخص آخر ليتحمل عقابه إنما يقوم بفعل محبة غير ملتزم به . ولنا فى ذلك مثل المحسن الذى يدفع غرامة عن فقير . فالشرع لا يجبره على ذلك بأى حال من الأحوال . وإنما بصدقته هذه قد وفّى العدالة حقها حبًّا فى التريب .

والمفهوم الصحيح للتكفير بالإنابة هو أن يتقدم شخص تكفيراً من أجل خطيئة غيره ، فيتحمل طوعاً واختياراً العقاب المترتب على هذه الخطيئة .

وإنه من المعلوم أن العنصر المادى فى التكفير هو العقاب . وأن المبدأ

= إن الله لا يريد أن يذهب أحد لا إلى جهنم ولا إلى المطهر . لأنه لا يريد الخطيئة . وكان من المفروض على الإنسان أن يموت وقد طهرت نفسه من جميع الآثام وتخلصت من كافة القصاصات المترتبة على هذه الآثام .

كان من المفروض على الإنسان أن يموت على الإيمان والرجاء والمحبة بفضل استحقاقات سيدنا يسوع المسيح الفائضة ؛ وهكذا يمكنه أن يرتمى من غير تأجيل (أى بدون أن يمر بالمطهر) فى أحضان المحبة الرحيمة » (القديسة تريزا الطفل يسوع) .

(١) الخلاصة اللاهوتية ق ١ — ٢ س ٨٧ ف ٨ .

الدافع إلى التكفير هو الحب الرحيم نحو الأثيم . ومن هذا المبدأ يستمد التكفير كل فاعليته . (ويسمى العقاب فى هذا التكفير من أجل خطايا الآخرين محبة بهم ورحمة لهم : عقاباً فادياً أو رحيماً لا انتقامياً) .

ولهذا للنوع من التكفير شرطان : أولهما التضامن الطبيعى أو الأدبى بين المذنب وبين مقدّم التكفير . وثانيهما قبول الشخص المهان لهذا التضامن والرضى عنه [١] .

وإن المعادلة الرياضية بين الحب والعقاب التى تقدم ذكرها هى دائماً فى صالح مقدم التعويض . فالواحد يستطيع أن يقدم تكفيراً عن غيره بشرط أن يشمل التكفير عنصر المحبة .

وهنا يزعم البعض أن القصاص يجب أن يكون أشد على مقدم التكفير من غيره . والحجة التى يقدمونها هي : لأن لعقاب المذنب قيمة أكبر من عقاب البرىء .

ولكن . . . هذا غير صحيح . لأن العقاب إنما يستمد كل قيمته كما سبق وقلنا من المحبة . فمن الواضح إذن أنه للتكفير عن الغير يلزم محبة أكبر مما للتكفير عن نفسنا .

وبناء على ذلك يمكننا القول بأن أخفّ قصاص يحتمله البرىء هو كافٍ للتكفير عن المذنب .

فالتكفير بالإنابة يستوعب العدل المتحدد بالمحبة الرحيمة . وينفى العدل الانتقامى نحو مقدم التكفير . وقد يجوز التساهل فى استبدال

---

(١) سوف نستطرد الحديث فى هذين الشرطين عند الكلام عن استحقاق المسيح .

اسم « الإنابة فى التكفير » بالإنابة فى القصاص مع استبعاد المعنى المحقر طبعاً الذى استعمله بعض الوعاظ والذى انتقدناه فى الفصل الأول من هذا الكتيب . ولكن منعاً للالتباس فالأفضل أن نتحاشى هذا التعبير « الإنابة فى القصاص » واستخدام لفظ : التضامن .

أما مفهوم الإنابة فى التكفير فهو من ثمرة الترقى اللاهوتى فى عقيدة سر الفداء . وهو أفضل تعبير — على ما يبدو — لهذا السر العميق . وفى هذا قال القديس توما :

« إن المسيح احتمل العقاب التكفيرى ليس على خطاياه بل على خطايانا » . لقد مات المسيح من أجل خطايانا حتى يحررنا من موت النفس . لقد تحمل — وهو البرىء — ما كان لزاماً علينا أن نتحمله نحن الخطأة » .

وقد كان فى مقدور المسيح أن يحقق مثل هذا التكفير لأنه إله متجسد . فبصفته إنساناً : كان له جسم قابل للألم والموت وهما العنصر المادى فى التكفير وبصفته إلهاً متجسداً : كان له قلب يتقد محبة نحو أبيه ونحو البشر . والمحبة هى المبدأ الذى يعطى كل قيمه لعمل الفداء .

وأهم شىء يجب ألا ننساه هو أن العدل والرحمة مكفولتان فى التكفير بالإنابة . وسوف نتناول كل مفهوم على حدته بالرغم من عدم انفصالهما بغية التحليل فقط للحصول على فهم أوضح .

رابعا ــ يسوع المسيح ضحية الحب

باتحاد مع الآب :

قال يسوع المسيح لرسله : «إن ابن البشر يُسَلَّم للبشر» ولكنه لم يقل لهم من الذى سيسلمه .

فقد أُسلم من أبيه : « الذى لم يشفق على ابنه بل أسلمه عن جميعنا » (رو ٨ : ٣٥) .

وأسلم ذاته بذاته : « أحبنا وبذل نفسه لأجلنا » (أفس ٥ : ٢) .

وأُسلم من يهوذا : « ماذا تريدون أن تعطونى فأسلمه إليكم » (متى ٢٦ : ١٥) .

وأسلم من اليهود إلى بيلاطس : «أن أمتك ورؤساء الكهنة هم أسلموك إلىّ » (يو ١٨ : ٣٥) .

وأُسلم من بيلاطس أخيراً إلى الأمم « حينئذ أسلمه إليهم ليصلبوه » (يو ٩ : ١٦) .

ولفظ « أُسلم » قد تؤخذ حسب الظروف والنيات بالمعنى الحسن أو بالمعنى السيئ : فإن الآب أسلم يسوع . كما أن المسيح أسلم نفسه من أجلنا إنما عن حب. ولهذا السبب نحن نقدم لهما المديح والشكر على هذا العمل . أما يهوذا فقد أسلم المسيح عن جشع . واليهود أسلموه عن حسد . وبيلاطس عن حياء بشري . ولهذا نحن نوجه إليهم المذمة والملامة .

لقد قال يسوع : « من أجل هذا يحبنى الآب لأنى أبذل نفسى

لآخذها أيضاً . ليس لأحد أن يأخذها منى ولكنى أبذلها باختيارى . ولى سلطان أن أبذلها ولى سلطان أن آخذها أيضاً . هذه الوصية قبلتها من أبى » (يو ١٠ : ١٧ — ١٨) .

وهنا يريد المسيح أن يشير — على حد قول يوحنا فم الذهب — إلى طابع الحرية فى احتماله الآلام والموت . ويريد كذلك أن يزيل كل شك حول الخلاف بينه وبين أبيه .

وكون الآب أسلم ابنه إلى الألم والموت قد يفهم على حسب تفسير القديس توما بالمعنى الآتى : « إن الله سبق ورتب منذ الأزل آلام المسيح وموته لأجل تحرير الجنس البشرى . ولهذا أوحى إليه مفيضاً فيه المحبة بأن يتقبل الموت من أجلنا ولم يجنبه الألم بل تركه عرضة للجلادين »[١] .

وبعد أن بيّن القديس توما فى قوة ودقة : بأن تسليم البرىء إلى الموت بالإكراه فيه ظلم وقسوة ، راح حالاً يضيف : « فليس على هذا النحو أسلم الله الآب ابنه يسوع المسيح . وإنما عرض عليه إن كان يقبل الموت من أجلنا راضياً مختاراً » .

إذن فالسبب الأخير الذى من أجله قبل المسيح الألم وذاق الموت هو محبته العظمى لنا . فقد أراد المخلص — باتفاق مع الآب — أن يقدم الدليل على ذلك باتخاذه طبيعتنا البشرية . وقد كانت هذه الطبيعة — بصرف النظر عن الخطيئة الأصلية — قابلة للألم والموت بحكم حالها من جهة ، وبحكم المحبة من جهة أخرى « ليس لأحد حب أعظم من هذا أن

---

(١) الخلاصة اللاهوتية ق ٣ س ٤٧ ف ٢ — ٣ .

يبذل نفسه عن أحبائه . (يو ١٥ : ١٣) .

لقد قلنا إن المسيح أراد أن يقدم دليلاً على محبته العظمى نحو الجنس البشرى . ولكنه أراد أن يكون الدليل ساطعاً جليّاً فلم يكتف باتخاذ الطبيعة البشرية ولم يكتف بتقدمتها . بل بذل حياته فى ريعان شبابه وفى أكمل قوته . كما أن هذه الحياة الجسدية التى بذلها كانت على جانب كبير من الكرامة والسمو بسبب اتحادها باللاهوت ، حتى إنه بفقدانها تألم أكثر من جميع بنى البشر .

عن طاعة . . .

لقد وضع المسيح نفسه وصار يطيع حتى الموت موت الصليب (فى ٢ : ٨) الطاعة علامة التواضع وطريق يؤدى إليه . لأن من أظهر خصائص المتكبر حرصه على أن يسير وراء إرادته الخاصة وحرصه على أن يسعى وراء جلائل الأمور حتى لا يتحكم فيه أحد ولا يخضع لأحد ولا يسيطر عليه أحد . وإنما ليتحكم هو ويتسلط هو ويسيطر هو حسب هواه ومزاجه .

الطاعة والكبرياء لا يمكن أن تسيرا جنباً إلى جنب . والطاعة فى آخر الأمر هى خضوع لله تعالى حسب قول المسيح لبيلاطس : « ما كان لك علىّ من سلطان لو لم يعط لك من فوق » (يو ١٩ : ١١) .

وحين أراد بولس الرسول أن يمجد تواضع المسيح فى النص المتقدم ذكره قال « صار يطيع » . ولقد كانت طاعة المسيح عنوان استحقاقاته

العظمى . ولكن كيف كان فى إمكان المسيح أن يطيع ؟

هل بصفته إلهاً ؟ لم يكن ذلك ممكناً (هذه قاعدة عامة) .

وإنما أطاع بصفته إنساناً. فقدشاء أن يتمم إرادة أبيه فى كل شىء. ولذا كان يردد دائماً قوله : « ليس كإرادتى بل كإرادتك » (متى ٢٦ : ٣٩).

ومن اللائق أن نتحدث عن طاعة المسيح بالنسبة للآلام لأن الخطيئة الأولى كان سببها عدم الطاعة ، كما «أنه بمعصية إنسان واحد جعل الكثيرون خطأة كذلك بطاعة واحد يجعل الكثيرون أبراراً » (رو ٥ : ١٩) .

فما أعجب طاعة المسيح ! إنه لأمر غريب أن يعارض الإنسان رغباته الخاصة بواسطة الطاعة . . . فكل إنسان إنما يرغب فى الحياة والشرف والكرامة والجاه . أما المسيح فلم يرفض الموت ولم يتحاش أشنع موت : موت الصليب .

وفى هذا يقول الرسول : « المسيح مات من أجل الخطايا ، البار مات عن الأثمة ، ليقربنا إلى الله» (١بط ٣ : ١٨) . ويقول بولس الرسول : « ومع كونه ابناً ، تعلم الطاعة بما تألم » (عبر ٥ : ٨) .

وهنا قد يخيل للذين لم يعرفوا الطاعة فى الشدة أنها أمر سهل هين .

ويقول المثل : لا يحسن القيادة من لم يتدرب على الطاعة . . . فالمسيح كان يعلم دائماً بالمثل . ولذا يعتبر المثال الأعلى والأكمل فى فضيلة الطاعة .

وعن طاعة ممزوجة بالحب :

يريد البعض أن ينسبوا آلام المسيح إلى فضيلة المحبة لا إلى فضيلة

الطاعة . فرداً على هؤلاء أجاب القديس توما بقوله : « لا فرق بين المحبة والطاعة . فعن طاعته أتم المسيح وصية المحبة . وعن محبته أطاع المسيح وصية الآب . كان المسيح مطيعاً لأنه ذاق الموت لأجل خلاصنا تتميماً لوصية الآب (وصار يطيع حتى الموت موت الصليب) » .

ولا يتعارض مع هذا الكلام قولنا : « المسيح بذل نفسه عن حب » . (فى ٥ : ٢) لأن طاعته كانت صادرة عن حبه لأبيه وللبشر .

فهناك إذن توافق تام بين القولين : المسيح مات عن حب . والمسيح مات عن طاعة .

وللحصول على فهم أعمق وأوضح لهذا التعليم يجب أن نتذكر قول القديس توما عن الطاعة ، ومكانها فى سلسلة الفضائل ، ونسبتها إلى المحبة .

والسؤال هو : هل تعتبر الطاعة أكمل من سائر الفضائل الأخرى ؟

والجواب الذى يعطيه القديس توما هو : أن الفضائل الإلهية أكمل الفضائل لأنها تجعلنا نتحد بالله . ثم تعقبها الفضائل الأدبية لأنها تجعلنا نحتقر خيرات هذه الدنيا إذا كانت عقبة فى طريق الاتحاد بالله . فهى لا تجعلنا نتحد بالله مباشرة بل يقتصر فعلها على إزالة الموانع التى تبعدنا عن الله .

إن تجرد الإنسان عن خيرات النفس لأفضل من تجرده من خيرات الجسم . والتجرد من الخيرات الباطنية لأسمى من التجرد من الخيرات الخارجية . والحال أن الإرادة هى أكبر خير تمتلكه النفس . فالطاعة إذن (وهى التجرد عن الإرادة الذاتية) تعتبر أولى الفضائل الأدبية وأسماها

إذ تجعلنا نخضع إرادتنا ونحتقرها من أجل الله . وقد كان القديس غريغوريوس على حق حين قال : إن الطاعة خير من الذبائح لأن فى تقدمتنا الذبائح إنما نقدم أجساماً غريبة . أما فى الطاعة فنحن نقدم إرادتنا ذبيحة لله » .

وخلاصة القول : أن الأعمال التى تصدر عن أية فضيلة من الفضائل الأخرى تفقد أجرها أمام الله إن كانت لا تصنع بروح الطاعة والخضوع لله . فمن يُساق إلى الاستشهاد ومن يوزع كل أمواله على المساكين ولا يخضع إرادته للإرادة الإلهية فلا قيمة لأفعاله ولا يستحق أجراً عليها .

وكذلك قل عن الذى يأتى أعمالاً غير مصنوعة بالمحبة — لأن المحبة تتمشى مع الطاعة جنباً إلى جنب . فالمحبة هى الصداقة القائمة بيننا وبين الله . والصداقة تفترض إرادة واحدة بين الصديقين .

وفى هذا يقول القديس توما : « كلما زاد الإنسان فى ممارسة الفضيلة زاد فى طاعة الله . والحال أن المحبة هى أولى الفضائل كلها وعليها تقوم جميع الفضائل . فالمسيح قام بأعظم فعل محبة ممكن . وبذلك بلغ أعلى درجة فى الطاعة لله . على حسب قول القديس يوحنا : « ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يبذل نفسه عن أحبائه » . فالمسيح بقبوله الموت من أجل خلاص البشر ومن أجل مجد الآب بلغ بالمحبة الكاملة أعلى قمة فى الطاعة .

وراضياً حرّاً

لقد حاول أخصام المسيح مراراً بأن يلقوا القبض عليه فلم يفلحوا .

لأن ساعته لم تكن بعد قد أتت (يو ٧ : ٣٠) ولأن رئيس هذا العالم لم يكن له فيه شيء (يو ١٤ : ٣٠) . ولكن كان لابدّ من أن يتمّ الكتاب (يو ١٩ : ٢٨) فالراعي الصالح بذل نفسه عن خرافة راضياً حرًّا وفي الساعة التي اختارها هو .

« من أجل هذا يحبني الآب لأني أبذل نفسي لآخذها . . . هذه الوصية قبلتها من أبي » (يو ١٠ : ١٧ — ١٨) — إن هذه التصريحات واضحة جلية : إذن فالمسيح خضع لوصية الآب عن حب طوعاً واختياراً .

غير أن بعض اللاهوتيين جاءوا بعد القديس توما وبحثوا المسألة ولم يستطيعوا أن يوفقوا بين هذين الأمرين : عدم الحرية من جانب الخطيئة . والحرية من جانب الموت على الصليب ؟

وفي هذا تقوم الصعوبة الكبرى : لأن الذي بحريته يخضع لوصية ، يستطيع أيضاً بحريته ألا يخضع .

والحال أن عدم الخضوع هو خطيئة . . . فهل كان في إمكان المسيح أن يخطأ لأنه كان حرًّا . وهنا تعددت المحاولات لحل هذه الصعوبة [1] .

---

(١) قال Billot المسيح لم تعط له وصية من قبل الآب بحصر المعنى .
وقال Pétua الوصية كانت حقيقية و بحصر المعنى . ولكنها كانت قابلة للتفسيح عنها
وقال Suarez الوصية كانت حقيقية و بحصر المعنى من جهة الموت . ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة لظروف الموت الدامي .
إنما هذه الحلول لا تستند إلى أساس كتابي . والحلان الأخيران هما من نسج الخيال .

والرجوع إلى تعليم القديس توما فيما يتعلق « بالحرية والخطيئة » يغنينا عن هذه الحلول الباطلة . .

إن قوة الإقدام على الخطيئة هى انحراف عن الغاية الأخيرة . وهذا ليس من خواص الحرية الصحيحة بل هو نقص فى الحرية التامة . إنها الحرية المزيفة .

فالذى يحدد الإرادة للعمل إنما هو الخير . لأن موضوع الإرادة هو الخير . فالقدرة على اختيار هذا الخير الجزئى أو ذلك مع احترام الغاية الأخيرة هو جوهر الحرية .

والحرية الحقيقية هى التى يمتلكها الملائكة والقديسون فى السماء . فهم معصومون من الخطأ مع بقائهم أحراراً . أما نحن فلسنا معصومين . هم يمتلكون على كمال الحرية . أما نحن فقد تستهوينا أحياناً الخيرات الجزئية وتستأثرنا وتلقى على عقلنا سحابة من الظلام فتسلب منا الحرية والإرادة . إن الحرية التامة لا تقصى حرية الاختيار فى خيرات محددة ولكنها تقصى حرية اختيار الخطيئة.

فهل الينبوع يعوق حرية النهر فى شق طريقه ؟ . إن كيان النهر من الينبوع ، هو منه وإليه . . . وهل الأم تعوق حرية الجنين ؟ إنها سبب كيانه وحياته وغذائه .

وعليه نقول إن المسيح لم يكن فى إمكانه أن يخطأ . ومع ذلك كان حرًّا تمام الحرية ، مثله مثل القديسين فى السماء . أما شرح قبوله وصية الموت على الصليب فليس صعباً . وقد قال فيه توما : « إن الالتزام بالطاعة

لا يقف عقبة فى طريق الحرية . ولكنه عقبة فى طريق الذين لا يطيعون بحرية » .

إن وصية المحبة لا تتعارض مع الإرادة الحرة فهى لا تتحقق إلا طوعاً واختياراً . والحال لقد كانت وصية الموت على الصليب وصية محبة . فقد سلمها الآب للمسيح حباً من أجلنا وقبلها المسيح من الآب حباً بنا وبالآب . وقد تممها المسيح طائعاً مختاراً فى حب وحرية .

« قوموا ننطلق من ههنا » :

« لا أكلمكم أيضاً كلاماً كثيراً لأن رئيس هذا العالم يأتى وليس له فىّ شىء لكن ليعلم العالم أنى أحب الآب وأنى كما أوصانى الآب هكذا أفعل . قوموا ننطلق من ههنا » . (يو ١٤ : ٣) .

يريد المسيح هنا أن يفهمنا أن موته يجب أن يكون سبباً لتعزيتنا . ففرق كبير بين أن يموت إنسان عن إثم اقترفه فيكون موته سبب حزن ، وبين أن يموت إنسان من أجل الواجب أو السخاء حباً بالفضيلة فيكون موته مصدر تعزية : كما يقول الرسول : « لا يتألم أحدكم كقاتل أو سارق أو فاعل شر أو مترصد لما هو لغيره . . . فأما إن تألم كمسيحى فلا يخجل بل ليمجد الله لأجل هذا الاسم » (١ بط ٤ : ١٥) . فبقوله هذا يبين لنا المسيح أن خطايانا لم تكن علة موته (بل كانت فرصة لموته) .

لقد تسلل رئيس هذا العالم إلى قلب يهوذا وحرضه على الخيانة . ثم نفذ إلى قلب اليهود وحرضهم على قتل المسيح . ولكنه لم يكن له إلى قلب المسيح

من سبيل ؛ فقد كان خالياً من كل خطيئة .

وإن لم تكن الخطيئة علة موت المسيح . فما هو إذن سبب موت المسيح ؟ . .

السبب الحقيقى يجب البحث عنه فى شيء آخر . لقد قبل المسيح الموت لغايتين : أولهما حب الله وثانيهما حب الناس . ويقول القديس توما فى شرحه لإنجيل القديس يوحنا الفصل ١٤ :

« اعلموا أنى أحب أبى حبًّا فعالاً . ولذا أقبل الموت لأنه أوصانى بذلك . فالحب هو السبب فى إطاعتى الآب » — . وهذه الوصية لم تعط من الآب إلى الابن بصفته الكلمة الأزلى (فهو إله مثل الآب) ولكن أعطيت له بصفته ابن الإنسان (أعنى الكلمة المتجسد) موحياً إليه بقبول الموت من أجل خلاص البشر : « ولكى يعرف العالم هذا الحب . فلننطلق من مكان العشاء إلى مكان الخيانة . انظروا . إنى أتقبل الموت عن حب وطاعة لا عن اضطرار وضرورة » .

الفصل الرابع

الوفاء بالإنابة : العدل الرحيم

أولا — المسيح كفارة لأجل خطايانا

عقدة السر :

الكفارة تجعلنا مقبولين لدى الله وتردنا إلى صداقته . وتقوم الكفارة فى التعويض عن الإساءة بواسطة تقديم الفدية والإنابة عن المذنب .

فأين العقدة فى سر الفداء ؟ .

إن الإنسان الساقط أخذ يرسف فى قيود الشر والإثم فكان فى حاجة إلى من يرفعه فى رحمة وحنان دون أن يهضم حقوق العدل والقانون . وليس تحقيق ذلك هيناً يسيراً . فمقتضيات الرحمة مختلفة أشد الاختلاف عن مقتضيات العدل . فإن أخذت الرحمة بالصفح فلا يرضى العدل إلا بالعقاب تعويضاً عن الإساءة . والمخلوق مهما كان عظيماً ومهما بلغت درجة مكانته من القداسة والطهارة يستحيل عليه أن يوفّى العدل الإلهىّ مطالبه وفاءً تامًّا كاملاً . فالإهانة التى لحقت بالله تنطوى على ذنب غير محدود . فما العمل إذاً ؟ . . .

لقد فكر ابن الله أن يقوم هو بالتكفير عن طريق الألم لأنه إنسان

حقيقى ، وعن التعويض بطريقة لامتناهية لأنه إله حقيقى . المسيح هو الذى يتقدم إلى البشرية ليحل لها مشكلة الخلاص الكبرى . إنه يواجه الألم دون أن يتحاشاه أو يرفضه . ويعانق الصليب دون أن يحاول النزول من عليه لأنه يرى فيه أداة للتكفير وعلامة للحب المندفع نحو البذل والتضحية والعطاء . إن الحب لا يقف فى طريقه شيء : « وليس لأحد حب أعظم من هذا أن يبذل الإنسان نفسه عن أحبائه » .

سار المسيح نحو الجلجلة فى خطوات قوية ثابتة ، خاضعاً لإرادة أبيه تدفعه رغبة الطاعة الاختيارية وعاطفة الحب القوية . صحيح أن طبيعته البشرية فزعت وارتعدت إزاء منظر الصليب الدامى ، لكن قلبه كان أقوى من أن يخذل أو يضعف . وحينئذ دارت المعركة العنيفة الحاسمة فى تاريخ البشرية بين الحب والألم ، وما كادت المعركة تنتهى حتى انتصر الحب على الألم .

فى الفداء تحقق العدل الإلهى تحقيقاً كاملاً تامًّا واستوفى كل حقوقه . وإنما كان عدلاً ممزوجاً بالرحمة والعطف والحنان والمحبة . فما ينبغى إذاً أن نقصى العدل عن مفهوم الكفارة (نظرية اللاهوتيين الأحرار) . وما ينبغى كذلك أن نعتاد رؤية العدل من زاوية الانتقام والغضب (نظرية لوثر وكالفين) .

فالحقيقة أن المسيح قدم نفسه كفارة من أجل خطايانا باحتماله الآلام والموت . وفى هذا التكفير توجد كل خصائص العدل الحقيقى ، هذا من

جانب ومن جانب آخر لا يمكننا أن نفسر رغبة الله بهذا التكفير إلا عن طريق الحب الرحيم .

وقصارى القول : أن العدل الانتقامى لم يكن السبب فى كفارة المسيح .

وعلى هذا لقد كان فى إمكان الله أن يتجاوز عن التكفير دون أن يهضم حقوق العدل . وهنا قد يعترض علينا :

إن إنكار عدل الله هو إنكار لوجود الله نفسه . والحال أن عدل الله يقتضى أن يفتدى الإنسان بواسطة الكفارة يقدمها عنه يسوع المسيح بآلامه وموته . إذن فقد يبدو أن الكفارة ضرورية .

ويرد القديس توما على هذا الاعتراض بقوله :

إن القاضى يلتزم عن عدل بفرض العقوبة على من يسىء إلى شخص آخر مواطناً كان أم رئيساً أم وطناً . أما إذا كانت الإساءة موجهة إلى القاضى نفسه . ففى هذه الحالة يستطيع القاضى أن يتجاوز عن فرض العقوبة . وهذا التجاوز يكون مصدره العطف والرحمة . وليس فى ذلك هضم لحقوق العدل أو إجحاف بحقوق الغير .

وكذلك فى استطاعة الله أن يتجاوز عن التعويض والتكفير عن الإهانة . فهو السيد المطلق الذى لا يتعالى عليه أحد . وهو الخير الأسمى الذى لا نهاية لخيراته . أما إذا كان الله قد طلب فعلاً كفارة وتعويضاً عن الإهانة فلم يكن طلبه خشية التجنى على العدل أو منعاً لعدم الظلم أو لعدم الإجحاف بحقوق الغير .

فى العدل تعويض عن الظلم :

لقد كانت آلام المسيح أحسن الطرق ملاءمة لافتداء الجنس البشرى . فهلاك الإنسان كان بسبب ارتكابه الظلم . فوجب أن يكون افتداؤه بسبب العدل . لأنه من العدل أن ينال المجرم عقابه . ولكن لا غضاضة فيما إذا تقدم صديق ينوب عنه فى تقدمة الكفارة وتحمل العقاب . والحال لم يكن فى استطاعة أحد أن يقوم بهذه المهمة . الله وحده — بما له من جلال وكرامة استطاع أن يقدم الكفارة الكافية باتخاذه جسداً كجسدنا . فكان من اللائق إذاً أن يتحمل المسيح الآلام التى كان على الإنسان الساقط أن يتحملها هو من أجل خطاياه .

فعلى الصليب كلل المسيح بالشوك . ونزف دمه . وتصبب عرقه وأذيق المر . وطعن جنبه وقلبه . . . حدث كل ذلك كما لو كان المصلوب هو المحكوم عليه من أجل خطاياه الشخصية وكما لو كان جسده جسد خطيئة على حسب قول القديس بطرس : « لقد حمل هو نفسه خطايانا فى جسده على الخشبة لكى نموت عن الخطايا فنحيا للبر » (١ بط ٢ : ٢٤) ، أو كما قال الرسول بولس : « لقد أعتقنى من ناموس الخطيئة والموت فى المسيح يسوع . . . إذ أرسل ابنه فى شبه جسد خطيئة ، وقضى على الخطيئة فى الجسد من أجل الخطيئة ، ليتم بر الناموس فينا نحن الذين لا نسلك بحسب الجسد بل بحسب الروح » (رو ٨ : ٢ — ٤) .

هذه صورة تستأثر بقلب الإنسان وتبين له ما كان العدل سيفعله بنا

نحن الخطأة . . . فمشهد الصليب إذن يلقن الإنسان الخاطئ درساً قاسياً فى العدل ومشهد الصليب يلقن الإنسان الخاطئ درساً فصيحاً عن الخطيئة وشناعتها . فالذى يهين الله يجدد صلب المسيح . . . إن سر الفداء هو سر العدل .

الفداء هو سر العدل بحصر المعنى :

هل قدم المسيح تكفيراً عن عدل بحصر المعنى ؟ فى هذا اختلف اللاهوتيون . فقد أنكر البعض وأوجب البعض وتردد البعض بين هؤلاء وأولئك . وهنا سنسوق حديثاً وجيزاً فى الموضوع لنعطى فكرة عن معنى العدل فى الفداء .

إن التكفير الذى قام به المسيح لم يكن كافياً وحسب بل كان زائداً عن إهانات الجنس البشرى(١) .

(١) زعم الأب بيو أن المسيح لم يكن فى استطاعته أن يستحق أو أن يقدم كفارة بموجب العدل الحصرى . وفى هذه الناحية لم يكن فرق بينه وبيننا . فالتكفير من جهة العدل الحصرى لم يكن متوفراً لا عنده ولا عندنا . ويدلل على ذلك بقوله :

---

(١) إن المسيح بآلامه عن حب وخضوع قدم لله أكثر مما كان يتطلبه فداء كل إهانات البشر .. وذلك لأن حب المسيح كان لا متناهياً ولأن حياته التى بذلها من أجلنا هى حياة إله متجسد . ولأن الآلام التى تحملها المسيح كانت على جانب بعيد من الشدة والعنف والقوة . (الخلاصة اللاهوتية ق ٣ س ٤٨ ف ٢) .

إن العدل الحصري يفرض التزاماً متبادلاً بين الطرفين (حقّ وحقك). فلا يكفي إذاً لتوفر العدل الحصري المساواة بين الاستحقاق والمكافأة أو بين الإهانة والتكفير . بل يلزم أيضاً ألا يكون المستحق أو مقدم الكفارة تحت سلطان وطاعة المهان . يلزم ألا يستمد المستحق أو المكفر من المهان لا الأعمال التكفيرية ولا المقدرة على إتيان هذه الأفعال .

والحال أن تكفيرنا عن الخطيئة كفعل حر واستحقاقي ما هو إلا هبة مجانية من الله . لأن الله هو المصدر الأول لكل استحقاق اختياري .

- فإذاً من الضروري أن يرفض القول بأن التكفير الصادر منا إلى الله هو من فعل العدل الحصري . وهذا ينطبق أيضاً على كفارة المسيح التي قدمها بالإنابة عنا .

هذا هو رأي الأب بيو الذي يستنكر الكفارة من جهة العدل الحصري[١] .

(ب) وزعم Sanchez ضد بيو : هذا صحيح بالنسبة لنا أما من جهة المسيح فلا دخل للهبة أو سخاء الدائن . إن دور الهبة والسخاء هما شرط مفترض . . . إن الهبة المجانية حقـًّا هو التجسد . وبعد أن يتحقق التجسد فالكلمة المتجسد يتعامل مع الآب معاملة الند للند . وبهذا يمكنه أن يقوم

---

(١) «لم يكن في استطاعة المسيح أن يقدم كفارة أو يعمل عن استحقاق بالمعنى الحصري . . . فلو فرضنا العدل الحصري لكان المسيح استحق بصفته إنساناً وهذا من المحال » .

بالكفارة عن عدل بحصر المعنى[١] .

ولكن يتطلب كلا الرأيين توضيحاً أوفر لحسن تفهم المسألة .

إن التسليم ولو ضمنياً مع Samchez بأن سر الفداء هو من مقتضيات العدل التبادلى — كما هو الحال بين متعاقدين متساويين — كالآب والابن أمر غير معقول على الإطلاق . فالمسيح لم يفتدينا بصفته إلهاً مساوياً للآب وإنما افتدانا بصفته إلهاً متجسداً تحمل الألم والموت فى طبيعته البشرية حتى أمكنه بل وجب أن يقول من هذه الناحية : « إن الآب هو أعظم منى » (يو ١٤ : ٢٨) .

فالكلمة الإلهى كان وسيطاً وكاهناً بصفته إنساناً لا بصفته إلهاً . فإذاً لا يجب التحيز لأحد . إن بيو فى هذه النقطة على حق .

فبصفته إنساناً قد أخذ الفادى كل شئ من الله بما فيه المقدرة على إصدار أفعال المحبة الحرة الاستحقاقية التى بواسطتها افتدانا .

وبصفته إلهاً لم تكن الكفارة التى قدمها المخلص تبادلاً متساوياً بين الند والند كما فى العدل التبادلى[٢] . فالفداء عطية مجانية . عطية من الثالوث كله إلى الابن المتجسد وبه إلى أعضاء جسمه السرى .

ولكن هل معنى ذلك أن هذه الهبة لم يتوفر فيها أى شئ من جهة

---

(١) « إن استحقاق المسيح كان عن عدل حصرى . . . إن الكفارة التى قدمها المسيح لا تستند إلى هبة الدائن ونحائه . . . فالنعمة المبررة وسائر المواهب التى حاز عليها المسيح كانت حقاً من حقوق الناسوت » .

(٢) ن المسيح بصفته إنساناً هو فادينا المباشر . ولكن السبب الأول فى الفداء هو الثالوث كله .

العدل الحصرى إذا نظرنا إليها من زاوية الكفارة التى قدمها المسيح باسمنا ؟

نحن لا نتعجل النتيجة دون أن نوضح أولاً ما هو ضرورى من توضيحه . فإن العدل التبادلى — الذى يقصى العلاقة بين الله الخالق وبين الخليقة — ليس وحده كل أنواع العدل الممكنة .

فعلينا أن ننظر إلى العدل من زاوية فضيلة الديانة التى تنظم علاقاتنا مع الله . عن طريق التماثل وبموجب العدل التوزيعى[١] .

فمن هذه الوجهة يمكننا القول بأنه العدل بحصر المعنى موفور أو غير موفور حسب الزاوية التى ننظر منها . فالعدل الحصرى لا يتوفر إذ كنا ننظر إلى تكفيرنا عن الخطايا بطريقة متكافئة مع الإهانة . إنما العدل الحصرى يكون موفوراً إذا نظرنا إلى الواجب المفروض علينا فى عبادة الله وفى تقديم التكفير عن خطايانا .

ثم سؤال آخر : هل نحن ملتزمون بالتكفير عن خطايانا من جهة العدل الحصرى : أى بطريقة تامة كاملة ؟

هنا يجب التمييز لتوضيح سر علاقتنا مع الله : نعم نحن ملتزمون بتقدمة الكفارة عن خطايانا . غير أنه ليس فى استطاعتنا التكفير بطريقة تامة كاملة .

وبالاختصار : يلزم أن نعمل ما نستطيع عمله . علماً بأننا لانستطيع أن نعمل كل ما يلزم عمله .

---

(١) حين نعترف بسلطان الله علينا فنحن بذلك نقدم له ما هو واجب له . (الخلاصة اللاهوتية ق ٢ — ٢ س ٨١) . . .

أما من ناحية المسيح . فنقول : نحن ملتزمون بالتكفير ولا نستطيع التكفير التام . أما هو فيستطيع ولكنه غير ملزم » .

ولم يكن فى استطاعة المسيح أن يتخذ خطايانا ولم يكن ملزماً بالتكفير عنها من ناحية العدل من غير الحب . وإنما أراد أن يقدم الكفارة عن عدل ممزوج بالحب فى حرية وطاعة لوصية الآب . وهكذا اعترف المسيح بحقوق العدالة الإلهية واحترمها ليس من جهته وإنما من جهتنا نحن . كما أنه اعترف ليس بواجبه ولكن بواجبنا نحو العدل . ولهذا احتمل عقاب التكفير من أجل خطايانا بحرية تامة وباسمنا . لقد بذل ابن الله نفسه عن حب من أجلنا نحن الخطأة . لم يكن ملزماً بالتكفير ولكنه كان يستطيع فأراد .

وحين قام المسيح بأعمال التكفير كانت زائدة . فمن يعمل أكثر مما يجب عليه ، فقد عمل بذات الفعل ما يجب عليه . . . وإذا كان ذلك صحيحاً . فما القول فيمن ليس عليه واجب فيعمل أكثر مما يتطلبه الواجب ؟ ولذا نقول إن الكفارة التى قدمها المسيح لم تكن كافية وحسب بل كانت زائدة أيضاً .

وهنا لا قيام للعدل الانتقامى ضد الخطأة . فالعدل الإلهى الذى يفوق إدراك البشر أعلن لنا فى شخص ابن الله المتجسد القداسة بالذات . فالله قدّم التعويض بدلاً من الإنسان . وهذه العبارة الأخيرة تقول كل شىء .

فإذا تأملنا سر العدل الإلهى فى التكفير بالإنابة من زاوية الواجب ومن زاوية المقدرة ، فسوف نعثر حتماً على الحب الإلهى . لم يكن المسيح

ملتزماً بأن يتألم ويموت تكفيراً عن زلاتنا . فلم يكن ما يجبره على ذلك إلا الحب وحده . وحتى حين قبل أن يقدم الكفارة فقد دفعه الحب إلى أن يقدمها فوق ما يقتضيه العدل . . . وعلى هذا لا شيء يفسر لنا سر عدل الجلجلة إلا الحب . ونستطيع أن نسميه عدالة الحب . . . فمن يلقى نظرة عميقة على آلام المسيح يجد نفسه إزاء هوة سحيقة . . . هوة الحب . . . وسر الحب هو من أعمق أسرار المسيح .

فيضان الرحمة :

إن فى سر الفداء صرامة ومحبة . فمن جانب لم يشأ الله أن يغفر الخطيئة من غير تكفير عنها على حسب قول الرسول : « لم يشفق على ابنه » (رو ٨ : ٣٢ ، ومن جانب آخر لما لم يستطع الإنسان الساقط أن يو فى العدل الإلهى مطالبه أعطاه الله محرراً على حسب قول الرسول : « وأسلمه من أجلنا جميعاً » . . « وجعله كفارة بالإيمان بدمه » (رو٣ : ٢٥) .

وقد قال القديس توما : « يليق برحمة الله وعدله أن يتحرر الإنسان بآلام المسيح . فالمسيح قدّم كفارة عن خطايا الجنس البشرى وبهذا تحرر الإنسان عن عدل . والإنسان إذ لم يستطع أن يوفّى العدل الإلهى مطالبه جعل الله ابنه كفارة بدمه . وبفعله هذا كانت ثمرة الرحمة أغزر مما لو كان غفر خطايانا وتجاوز عن الكفارة . ولذلك يقول القديس بولس فى رسالته إلى أهل أفسس : « لكن الله لكونه غنيًّا بالرحمة ومن أجل كثرة محبته التى أحبنا بها ، حين كنا أمواتاً بالزلات أحيانا مع المسيح

فإنكم بالنعمة مخلصون » (١ فس ٢ : ٤) .

وقد يتضح لنا من النص المتقدم ذكره قوة وعمق ودقة ووضوح القديس توما فى موضوع سر الفداء .

إن محبة الفادى تكشف لنا عن شناعة الخطيئة وعن رحمة الله معاً .. فالخطيئة هى كراهية الله : أو قل كراهية الحب . هى موت الله فى النفس . والحال يبدو لنا الله على قدر ما يبعث فينا من بغض للخطيئة عادلاً ورحيماً . وهل كان فى استطاعته أن يكشف لنا عن شناعة الخطيئة أكثر مما فعل : فقد سمح أن تكون الخطيئة سبباً لموت المسيح على الصليب .

وبهذا أصبح افتداؤنا من الخطيئة دليلاً على الحب الإلهى أكثر مما يتصوره العقل البشرى . لأنه ليس من حب ورحمة أكثر من هذا أن يسفك شخص دمه ويبذل حياته من أجل أعدائه . . . والأدهى من ذلك أن هذا الشخص هو الله ، « فيالها من سقطة سعيدة استحقت لنا الفادى العظيم » .

لا شىء يحدث فى العالم، إلا بسماح من الله ووفقاً لإرادته . وهنا لا يسعنا إلا أن نقدم فروض العبادة والسجود لإرادته القدوسة .

تاريخيًّا دخل الموت إلى العالم بواسطة الخطيئة : إن بعض العقليين يزعمون أن آلام المسيح لم تكن إلا مجرد مثل رائع فى الشجاعة والبطولة لإظهار محبته . ولكن لو لم يشأ المسيح أن يقدم الكفارة عن الخطيئة فهل كان يليق بابن الله أن يموت هذا الموت الدامى العنيف ؟ إن الصليب لا يمكن تفسيره إطلاقاً إلا إذا سلمنا بالتعويض عن الخطيئة . فلولا هذا العدل

لما عرفنا هذه الرحمة . فالرحمة هى التى تتحكم وتسيطر وتنتصر . أما العدل فيتوفر هنا بعيداً عن مقتضياته الصارمة وفوق مستلزماته الخاصة . وقلت بعيداً ؛ لأن العدل ليس له حكم على البرىء .

وقلت فوق مقتضيات العدل : لأنه لا يتحتم على المسيح تحمل هذا الألم ، وكل هذا الألم .

فإن فداء البشر من قيود الخطيئة لم يكن يتطلب سوى تنهدة واحدة تنطلق من صدره الحزين ، أو دمعة واحدة تنحدر من عينه وتسيل على خده ، أو صيحة توسل واحدة تنبعث من نفسه إلى أبيه . فإن للتنهدة الواحدة ، والدمعة الواحدة ، والصيحة الواحدة قيمة غير محدودة لأنها صادرة من إله متأنس . ولأنه كلما ارتفعت درجة الحب قلت ضرورة التكفير . ومحبة المسيح الفادى لم يكن لها حدود فى القيمة . فكان فى استطاعة المسيح أن يخلصنا من غير ألم .

فإذا لم يكن بدّ من التسليم بأن جسد المسيح المعلق على الصليب برهان على توفّر العدل الإلهى ، لأنه جسد ضحية وذبيحة تكفير (رو ٣ : ٢٤) فينبغى القول حالاً بأنه لا يمكن أن يكون الكلمة المتجسد إلا قرباناً وذبيحة محبته الرحيمة .

فالرحمة والرحمة وحدها هى التى تهيئ وتعيّن وتشمل ضحية الجلجلة . ولا يوجد فى الواقع احتمال لشىء آخر .

إن الفداء كتاب مفتوح يعبر تعبيراً محسوساً دموياً عن تفوّق الحب الإلهى على العدل ، والتقائهما السرى فى الله .

إن العدل والحب لا ينفصلان فى الله . بل بالعكس أن العدل يضطرم بالحب فى الله . فالعدل هو الحب والحب هو العدل .

وها نحن نكاد نتلمس السر العميق فى الصفات الإلهية التى ينطبق بعضها على بعض بالتبادل من أجل تسامى الله الذى لا يوصف ولا يمكن التعبير عنه . فإن الله بمحبته العظمى يكشف لنا عن بعض الجوانب من عدله . ولكن العدل لن ينكشف لنا فى شخص ابن الله إلا من زاوية الحب . لأن العدل فى الله هو الحب . الحب هو كل شىء فى الله حتى ولو كان عدلاً . وفى هذا يقوم موضوع سر الفداء . إنه يفوق عقولنا ولا يمكن إدراكه على الإطلاق . إننا نمضى من الرحمة إلى العدل ومن العدل إلى الرحمة . وبهذا أراد الله أن تكون الرحمة فى العدل والعدل فى الرحمة بدون انفصال . وهكذا ينكشف لنا العدل والرحمة معاً مع تفوق الرحمة على العدل . وكلاهما تعبير عن حب الله الذى حررنا من الخطيئة يجذبنا إليه . أليس الله محبة ؟ !

إن قلب المخلص المطعون بالحربة هو إعلان محسوس لهذا الحب الفادى. ويجب أن نربط تلقائياً بين الدم المتفجر من صدره وبين الحب المنطلق من قلبه الذى يضرم إرادة المسيح البشرية . هذا من جانب . ومن جانب آخر يجب أيضاً أن نربط بين هذا الحب المنطلق من قلبه وبين نفخة الحب الذى ينظم حياة الثالوث كله.

فالمسيح الذى حبل به من الروح القدس فى أحشاء العذراء مريم الطاهرة يتغذى بالحب ويحيا بالحب ويموت بالحب .

لقد قام منتصراً من بين الأموات . ولا يزال قلبه الذى طبعت عليه آثار الجروح رمزاً حيًّا للحب الرحيم .

وهذا الحب يربط فى الجسم السرى بين الرأس والأعضاء باتحاد الروح القدس .

فنحن لا نستطيع أن نفهم قلب المسيح الفادى إلا إذا كان فينا روح المحبة .

ثانياً ــ آلام النزع

إن القديس توما حين يتعرض لتحليل آلام المسيح أثناء نزعه لايخرج من الواقع أويسبح فى الخيال اللاهوتى . إنه يمسك جيداً بطرفى السلسلة . فمن فوق : أى من جانب الله : لاترك وضعى . ولا اختلاف . ولاغضب ولا انتقام ولا سخط .

ومن أسفل أى من جانب المسيح : لاعقاب انتقامى . ولاعذابات جهنمية .

لا بل يرفض القديس توما مقابلة آلام المسيح بآلام نفوس الأبرار التى تكفر عن خطأياها فى المطهر بعد الموت . وهذا الرفض معقول جدًّا فالمسيح هو الله وهو البرارة بالذات .

فضلاً عن ذلك ــ يشير القديس توما إلى أن المسيح لم يقل فى البستان أثناء النزع : « أنا حزين » وإنما قال : إن نفسى حزينة حتى الموت» . ذلك لأن « الأنا » يدل على الشخص . فبصفته كلمة الله لم يكن المسيح

حزيناً وإنما استولى الحزن على نفسه البشرية التى اتخذها فى الوحدة الشخصية [١] .

فالإله لايتألم . والمسيح لم يتألم من حيث هو إله وإنما من حيث هو إنسان .

الآلام الجسمية . والنفسية . والأدبية :

يظهر لنا القديس توما آلام المسيح فى صورة موجزة ولكنها شاملة . وهذه الشمولة ليست مطلقة كما يقول هو (لم يكن فى إمكان المسيح أن يكون ضحية الماء والنار معاً) وإنما هى شمولة جديرة باسمها . كما يتضح من النقط الآتية :

من الذى عذّب المسيح ؟ — الكل : اليهود والأمم . الرجال والنساء (حتى الخادمات) . الرؤساء والمرؤسون — الشعب وبعضه مجهول وبعضه من خواصه . والبعض من معارفه ؟ (يهوذا يخونه . بطرس ينكره) .

وفيم تألم ؟

تألم من أصدقائه الذين تركوه .

تألم فى صيته (التجديف) .

تألم فى شرفه وكرامته (شتائم وتعييرات لاذعة) .

---

(١) إن القديس توما هنا — على ما يبدو — كان جاهلا التعبير العبرانى الذى لا يفرق بين : نفس حزينة وأنا حزين . على كل حال لا غبار على ما أبداه من تفسير لاهوتى .

تألم فى خيراته التى كان يمتلكها (عرّوه من ثيابه) .
تألم فى نفسه (حزن . ضيق . خوف) .
تألم فى جسمه (جروح وطعنات) .
وكل عضو من أعضاء جسمه ذاق الألم :

فقد تألم المسيح فى رأسه (البصق . اللطم . إكليل الشوك) .
وتألم فى يديه ورجليه (ثقب المسامير) .
تألم فى كل مكان من جسمه فى وحشية وضراوة وقسوة (الجلد بالسياط)
ولم تخلُ حاسة من حواسه الخمس من الألم :
اللمس (المسامير والسياط) — الذوق (المر والخل) .
الشم (رائحة جثث الجلجلة الكريهة)
السمع (التجديف والشتم والتعيير)[١] .
النظر (يرى دموع أمه والتلميذ الحبيب) .

ويتساءل القديس توما بعد أن سرد كل هذه الآلام، عما إذا كانت أشد من كل آلام البشر التى يمكن تكبدها فى هذه الحياة ؟

يرد بالإيجاب من جهة الآلام الجسمية والحزن الداخلى ويبرر جوابه بتكرار ما سبق وذكره أو بتكملته .

فلو تأملنا فى أسباب هذه الآلام لوجدنا أن الموت على الصليب من أقسى أنواع الموت : فالمصلوب معلق على خشبة بواسطة مسامير تدق بين

---

(١) بخصوص آلام الشم : أرى أنها لا توافق الواقع التاريخى .

مفاصله والمفاصل من أكثر أمكنة الجسم حساسية. ويزيد الألم قسوة: ثقل الجسم وطول وقت التعذيب. فالمصلوب لا يموت فوراً كما يموت من يطعن بالسيف . . هذا من جانب الآلام الجسمية .

أما من جهة آلام المسيح الباطنية . فمصدرها كل خطايا الجنس البشرى . فقد قدم المسيح عنها الكفارة عن طريق الآلام . والمرنم يتكلم عن « كلمات صراخ » المخلص . (مز ٢١ : ٢) بأنها صراخ الخطايا . وقد فاقت آلام المسيح آلام أى خاطئ . ذلك لأن آلام المسيح صادرة عن حكمة أكبر وحب أعظم . ولأن هذه الآلام كانت تمتد إلى كافة خطايا العالم كله . غير أن الألم النفسانى فى المسيح لم يكن ألم الندامة : فقد كان يسوع بريئاً وكان عالماً ببراءته .

ومن بين الخطايا التى تألم من أجلها المسيح خطيئة اليهود وكل من شاركوهم فى جريمة القتل . وكذلك خطيئة الرسل الذين شكوا أثناء نزعه .

وعلى قدر ما يكون الإحساس مرهفاً على قدر ما يكون الألم شديداً . والحال أن المسيح كان أشد الناس إرهافاً وإحساساً ولطافة . فناسوته المقدس قد تصور بأعجوبة فى أحشاء مريم بعمل الروح القدس . وكانت نفسه تدرك إدراكاً دقيقاً أسباب آلامه ومصدرها ، « فالحبر الذى لنا ليس ممن لا يستطيع أن يرثى لأمراضنا بل قد جرب فى كل شىء مثلنا ما خلا الخطيئة » (عبر ٤ : ١٥) .

ما أعظم المسيح وسط الآلام والأحزان ! إنه لم يشأ ولم يحاول ولم يقبل أى تخفيف فى آلامه . فقد تحملها بإرادته لأجل تحريرنا . لقد أراد أن

تكون هناك نسبة بين قسوة الآلام وبين الثمار المرجوة منها . لقد أراد أن تتوفر كفارة العدل . . . ولم ينظر إلى القيمة اللامتناهية الصادرة عن أخف ألم يتحمله ، فأراد أن يتحمل الآلام الملائمة لكفارة العدل فى الناسوت الذى اتخذه .

فى السلام والفرح :

لقد شعر المسيح بفظاعة الموت وفزعت طبيعته البشرية أمام مشهد الجلجلة وارتعد قلبه إزاء منظر الصليب الدامي . ولكنه أراد الموت ورضى عنه ورغب فيه يدفعه إلى ذلك الحب الشديد والسخاء العميم . إن عرق الدم الذى تفجر من جسمه فى البستان لا يعوق رضاه وقبوله واستسلامه الحر : « أبتِ جنبنى هذه الكأس لكن ليس كمشيئتى بل كمشيئتك » فهذا الخضوع وهذا الحب يخفف من أثقال الآلام .

إننا نقرأ فى إنجيل القديس يوحنا هذا النص : « الآن نفسى قد اضطربت . ماذا أقول ؟ يا أبت نجنى من هذه الساعة . ولكن لأجل هذا بلغت إلى هذه الساعة . يا أبت مجد اسمك » (يو ١٢ : ٢٧) .

إن عقل المسيح يدافع هنا عن رغبته الطبيعية التى ترفض الموت وهو بذلك يعبر عما يعانيه فى نفسه من اضطراب وحزن .

ولكن قد جاء فى نص آخر : « وفى أيام بشريته قرب تضرعات وتوسلات بصراخ شديد ودموع إلى القادر أن يخلصه من الموت فاستجيب له بسبب الاحترام » (عبر ٥ : ٧) ولكننا نعرف أن المسيح لم يستجب له عند ما طلب النجاة من هذه الساعة .

فما القول فى هذا التباين الظاهرى ؟

الواقع أنه قد استجيب دائماً لطلبات المسيح حين جاءت بصيغة مطلقة . أى إذا كانت

نيته أن تستجاب طلبته . ولكن فى هذا النص يبدو الأمر خلاف ذلك . فلم يطلب هنا المسيح بصيغة مطلقة وذلك واضح من النص نفسه كما أشار إلى ذلك القديس يوحنا فم الذهب لشرحه هذه الآية : فقد قال : « إن التعبير هنا جاء فى أسلوب استفهامى . ماذا أقول ؟ يا أبت نجنى من هذه الساعة ؟ وكأن المسيح يريد بهذا الاستفهام أن يقول : إننى لا أقول ذلك : يا أبت نجنى من هذه الساعة.

لا ينبغى مقاومة تدبير العناية الإلهية : « من الذى يتصلب أمامه ويسلم»؟(أيوب ٩ : ٤). إن الكتاب سمى الآلام كأساً . فالألم فى حد ذاته مر ولكنه إذا امتزج بالحب صار حلواً . شأنه شأن الدواء فإننا نشعر بمرارته عند ما نتجرعه ولكنه يصير حلواً بقدر ما يحمل من أمل فى الشفاء . وترى المرنم يتغنى بذلك قائلا :

« آخذ كأس الخلاص وأدعو اسم الرب » (مز ١١٤ : ١٣) .

لقد قدم الآب إلى المسيح هذه الكأس ليشربها . فتقبلها المسيح راضياً طائعاً مختاراً . وقد تجرع المسيح هذه الكأس دفعة واحدة . أما أعضاء جسمه السرى والرسل والقديسون فإنهم يتجرعون كأسهم بالتدريج لما فيها من مرارة ورغم إرادتهم المستنيرة . لأنهم لم يتقبلوها كما قبلها المخلص فى خضوع تام . ولذا نستطيع القول بأن المسيح وجد سهولة فى تحمل الألم .

لا بل إن المخلص فى أقسى ساعات النزع لم تحجب عنه المشاهدة الطوباوية وهذا ما أجمع عليه العلماء ولا سيما القديس توما . فالمعلم الملائكى يواجه السر بصراحة . فلا يحاول أن ينتقص منه ولا أن يفسره ، إنما هو يعبر ما استطاع إلى ذلك من سبيل .

والتشبيه هنا قد يساعدنا على حسن التعرف على السر . إن قمة الجبل قد تضطرم بأشعة الشمس بينما الوادى يكون مظللا بالضباب والسحاب .

وكذلك بعض الأمثلة التى قدمها لنا الشهداء قد تساعدنا على حسن تفهم ذلك . فبينما كانت أجساد الشهداء عرضة لأقسى العذابات وأفظعها كان الفرح يغمر قلوبهم والسلام يملأ نفوسهم . فالمسيح هو المثل الأوحد

فى ذلك . وهو المثل الذى يفوق كل حد .

ومن الخطأ القول بأن المسيح تألم فى جسمه ولم يتألم فى نفسه . فالإنسان كل لا يتجزأ . والكتاب صريح فى ذلك حين يقول عن المسيح : إن نفسى حزينة حتى الموت » .

لقد قاسى المسيح الألم كأى إنسان لأسباب جسمية ونفسية وأدبية . وإنما فى أعلى قمة العقل والإرادة كان ابن الله ينعم دائماً بمشاهدة لاهوته ومشاهدة أبيه مثل السلام المنحدر من الفرح الذى لا يوصف .

إن فى المنطقة السفلى من العقل والإرادة كان نفور من الألم وصراع مع الموت . أما فى المنطقة العليا فلم يكن لاقلق ولا اضطراب ولا صراع . كل شىء كان يتلاشى فى حكمة الحب اللامتناهى .

إن القديس توما بنظره الثاقب النيّرلم يخش الخوض فى أقسى مأساة ويسبر غور الحزن الذى عصف بقلب المسيح والذى كان مبعثه الحب (حب أبيه وحبنا) بمناسبة الخطيئة (كراهية الخطيئة واحترام حرية الخاطئ) .

من الطبيعى أن يتألم المرء لدى رؤيته المصائب تحلّ بأصدقائه وأقاربه . ومن هذه الناحية كانت خطايا البشر وما تستحقها من قصاص سبباً فى الحزن العميق الذى عصف بقلب المسيح . وإنما فرق شاسع بين حزن المسيح وحزننا من جهة الكيفية .

لقد كان المسيح يرى كل ما يحدث من زاوية الحكمة الإلهية بسبب تمتعه بالمشاهدة الطوباوية ، فمن هذه الوجهة لم يكن يحزن لا من الخطيئة

ولا من القصاص الذى يستحقه الخاطئ . شأنه شأن القديسين فى السماء الذين لا يكدر صفو نعيمهم شيء مما يحدث فى العالم لأنهم يرجعون كل شيء إلى الحكمة الأزلية .

أما بالنسبة لنا نحن الأرضيين فالأمر يختلف كثيراً . فنحن نحزن بسبب خطايا الآخرين لأنها ستكون سبباً فى هلاكهم فضلاً عن إهانة الله وخذل الإيمان .

فالمسيح كان على المستوى الروحى ينعم بالسرور برغم الآلام التى ألمت بحواسه وبذاكرته وبعقله . إنه سر الفرح والألم فى الشخص الواحد ولكن على مستويات مختلفة . ففى القوى العليا من النفس لا شيء يمكن أن يسبب له حزناً . وأما فى القوى السفلى من النفس فكان الألم يغمره كله .

ولم يكن السرور يقلل من الألم فى المسيح . كما أن الألم لم يمنع وجود الفرح . فلم يكن تسربٌ لا من القوى السفلى إلى العليا . ولا من العليا إلى السفلى .

إن سرور الله غير متناهٍ . وكان المسيح بصفته إنساناً يشترك فى هذا السرور بالمشاهدة الطوباوية . وقد جاء خصيصاً ليشركنا معه فى هذا الفرح بموجب آلامه . ولنسمع ما سبق وقاله لرسله فى الخطاب الذى ألقاه عليهم بعد العشاء وقبل نزعه فى بستان الزيتون :

« كما أحبنى الآب كذلك أنا أحببتكم . اثبتوا فى محبتى . إن حفظتم وصاياى ثبتم فى محبتى كما أنى حفظت وصايا أبى وأنا ثابت فى محبته . كلمتكم بهذا ليكون فرحى فيكم ويتم فرحكم . هذه هى وصيتى أن

يحب بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم . ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يبذل نفسه عمن أحبه » (يو ١٥ : ٩ – ١٣) .

فلنفرح إذاً بفرح إلهنا ومعلمنا يسوع المسيح ولو كان بواسطة الصليب » .

ثالثا – توضيح بعض النصوص الكتابية

لقد أوّلت بعض النصوص الكتابية تأويلا لا يلائم تعاليم القديس توما اللاهوتى الخاص بسر الفداء . ولكن لهذا التأويل الباطل ما يبرره : فإن النص الكتابى يبدو لمن يقرؤه لأول وهلة – بمعنى ظاهرى – غير معناه الصحيح . إلا أن النص يجب أن يفسر دائماً وفق السوابق واللواحق .

وفى شرح القديس توما لهذه النصوص الملتبسة وضوح وتسلسل وترابط وأمانة وإن كان التعبير يبدو أحياناً ثقيلا ومتكرراً .

العبد المتألم :

« مزدرى ومخذول من الناس . . . لقد أخذ عاهاتنا وتحمل أوجاعنا . . . جرح لأجل معاصينا وسحق لأجل آثامنا . . . ولأجل معصية شعبى أصابته الضربة ... والرب رضى أن يسحقه بالعاهات » (أشعيا ٥٣) .

وقد شرح القديس توما النص هكذا :

إن المسيح الإنسان الحقيقى حمل أوجاعنا وأخذ عاهاتنا : كالجوع والعطش . وكذا الأوجاع الحسية كالحزن والاضطراب . لقد خلصنا

من الخطيئة ولكنه حمل عقابها بالنيابة عنا . كالل بالشوك وجرح بالمسامير وطعن بالحربة . لقد ألهبت ظهره ضربات السياط وسحقته لطمات الخدم والجنود . لقد رضى بذلك كله ليمحو آثامنا . لقد احتمل العقاب المستحق على الخطيئة نيابة عنا . وبهذا فتح لنا باب السماء . قدم نفسه ذبيحة لأجل خلاصنا . لقد أصبح حثالة الإنسانيه بسبب قسوة الألم وشناعة الموت وفداحة الجرائم التى نسبت إليه زوراً لقد صار بالاختصار « رجل الأوجاع » .

وقد رضى الله بهذه الآلام « ولأجل معصية شعبى أصابته الضربة » لقد كان المسيح طائعاً لأبيه حتى الموت . وبهذا حقق التبرير للجنس البشرى .

الهجر :

ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا : إيلى إيلى لما شبقتنى أى إلهى إلهى لماذا تركتنى » (متى ٢٧ : ٤٦) .

أخذت هذه العبارة من المزمور ٢١ الذى تحدث بنوع خاص عن آلام المسيح . فما معنى هذه الكلمات على فم المسيح ؟

يقال عن شخص أنه أهمل من الله عند ما يحجب عنه وجوده فلا يدافع عنه ولا يستجيب لصراخه . فهل المسيح كان مهملا من الله ولو لوقت ما بسبب آلامه الجسدية ولا سيما أنه كتب : « إن الله لم يشفق على ابنه بالذات » (رو ٨ : ٣٢) .

إذا تتبعنا كلمات المزمور نراه يقول : « بعدت عن خلاصى كلمات صراخى » . فهذه العبارة تبين أن قائلها شخص خاطىء . فلا تنطبق بالتالى هذه العبارة على المسيح بصفة شخصية وإنما تنطبق على الخاطئين أو على الكنيسة . فهناك قاعدة فى شرح المزامير : هنا المسيح يطبق على نفسه ما هو خاص بأعضاء جسمه السرى . فالكنيسة والمسيح جسم واحد ، شخص واحد . فالمسيح هو الكنيسة والكنيسة هى المسيح . قد توجد الخطيئة بين أعضاء المسيح — أى الكنيسة — أما الرأس فخال بل معصوم من الخطيئة . إن المسيح المعلق على الصليب له فقط مظهر الخاطئ « أرسل ابنه فى شبه جسد خطيئة وقضى على الخطيئة فى الجسد من أجل الخطيئة » . (رو ٨ : ٥) « والذى لم يعرف الخطيئة قد جعله خطيئة من أجلنا لكى نصير نحن بر الله فيه » (٢ كور ٥ : ٢١) .

فالمسيح كإنسان يقول ويردد القول : « إلهى إلهى » ليعبر عما فى أعماق نفسه من عواطف . ويتكلم عن الترك على سبيل التشبيه . لأنه حين يتعرض إنسان لشر الخطيئة أو عقابها يقال له : « متروك » . والحال أن المسيح بحكم الاتحاد الأقنومي وبحكم النعمة لا يمكن أن يتركه أبوه : « إنما يقال له متروك بسبب الآلام والأوجاع » .

وفى النص يقول المسيح : لماذا تركتنى ؟ فهذا السؤال لا ينم عن الضجر واليأس ولكن عن رأفته وعطفه على اليهود الذين غمرهم الظلام .

وعن إعجابه بحب أبيه نحو الخطأة المساكين [١]

ليظهر برّه :

« جعله الله كفارة بدمه بالإيمان لإظهار بره بمغفرة الخطايا السالفة التى إنما احتملها ليظهر بره فى هذا الزمان حتى يكون هو بارًّا ومبرراً من له الإيمان بيسوع المسيح » (رو ٣ : ٢٥) .

إن القديس توما لا يشير ولو مرة واحدة فى شرح هذه الآية إلى العدل الانتقامى . فالكلام إذن فى هذه الآية عن فاعلية دم المسيح لمغفرة الخطايا . وبهذا يظهر لنا بر الله ، سواء البر الذى بسببه صار بارًّا أم البر الذى يبرر الآخرين .

فى شبه جسد الخطيئة :

« أرسل ابنه فى شبه جسد خطيئة وقضى على الخطيئة فى الجسد من أجل الخطيئة » (رو ٨ : ٣) .

لا يعنى هذا النص بأن جسد المسيح كان خيالا على حسب زعم

---

(١) لم ير المسيح أنه معاقب من أبيه . ولم يستشعر عذاب الهالكين . وإنما تألم جسمياً وأدبياً آلاماً تفوق الإدراك البشرى . لقد رأى خطايا البشر كلها واحدة واحدة . لقد تراءت له كل خيانات العالم له ورفض تعاليمه .

لقد رأى مقدماً احتقار بعض النفوس لحبه . فآلامه هى آلام مخلص لا محكوم عليه . آلام تكفير لا آلام عقوبة . إنها آلام مثيرة وليست آلام اليأس . ولكن الآلام المثيرة التى يتحملها ابن الله أقسى من آلام اليأس .

المانويين . فالمسيح يسوع نفسه قال لرسله : « جسونى وانظروا فإن الروح لا لحم له ولا عظام كما ترون لى » (لو ٢٤ : ٣٩) ، ثم النص لا يقول هنا : « شبه جسد » ولكنه يقول : « شبه جسد خطيئة » .

فالمسيح طبعاً ليس له جسد خطيئة أى جسد حبل بالخطيئة إذ قد حبل به من الروح القدس الذى يمحو الخطايا « والمولود فيك إنما هو من الروح القدس » (متى ١ : ٢٠) ويقول المسيح على فم داود النبى فى المزمور ٢٥ : ١١ « أما أنا فأسلك فى سلامتى . وقامت قدماى فى الاستقامة » .

ولكن كان المسيح « شبه جسد خطيئة » أعنى جسداً يشبه جسد خاطئ ، أى جسداً خاضعاً للألم والموت . والواقع أن الإنسان قبل السقطة لم يكن خاضعاً للألم والموت وإنما دخل الموت إلى العالم بحسد إبليس . فأراد المسيح أن يكون شبيهاً بإخوته فى كل شىء ليكون رحمة » (عبر ٢ : ١٧)

كما أنه ليس فى النص إشارة واحدة إلى جسد مرذول نيابة عنا بمعنى العدل الانتقامى .

إذن فالتفسير الصحيح هو أن الجسد الذى يخضع للألم والموت يدعى : « شبيهاً بجسد الخطيئة » لأن الألم دخل إلى العالم بسبب الخطيئة .

الصك المسمر فى الصليب :

« وحين كنتم أمواتاً فى الزلات أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع الزلات محا الصك الذى كان علينا بموجب الأقضية الذى كان لهلاكنا وأخذه من الوسط وسمره فى الصليب » (كولوسى ٢ : ١٣) .

كانت العادة القديمة أن يؤخذ الصك فى حالة الوفاء والإبراء ويمزق . فالإنسان هنا فى حالة خطيئة . وقد دفع عنه المسيح الدين بواسطة آلامه. ولهذا جاء تعبير الرسول « ومحا الصك وسمره فى الصليب» أى وفّى الدين إلى الله بواسطة الصليب .

وجعله خطيئة من أجلنا :

« إن الذى لم يعرف الخطيئة جعله خطيئة من أجلنا لكى نصير نحن برّ الله فيه » (٢ كور ٥ : ٢١) ما معنى « جعله خطيئة من أجلنا » أعطيت هذه العبارة ثلاثة شروحات :

١ ــ كانت العادة فى الشريعة القديمة تسمية الذبيحة المقدمة من أجل الخطيئة : « خطيئة » . يؤيد ذلك ما جاء فى هوشع النبى : « إنهم (الكهنة) يأكلون خطايا شعبى » (أى الذبائح المقدمة عن خطايا الشعب (هو ٤ : ٨) .

إذن « فجعله خطيئة » قد تفيد : صار ضحية أو قدم نفسه ضحية من أجل الخطايا .

٢ ــ وقد تفيد العبارة أحياناً « شبه خطيئة » أو العقاب المستحق على الخطيئة » .

ويؤيد ذلك قول بولس الرسول : « أرسل الله ابنه فى شبه جسد خطيئة وقضى على الخطيئة فى الجسد من أجل الخطيئة » (رو ٨ : ٣) .

إذن « فجعله خطيئة » قد تعنى : أرسل الله ابنه فى جسد خاضع للألم والموت .

٣ — يقال عن شىء إنه كذا وكذا، ليس لأنه بالفعل هو كذا ولكن لأن الرأى العام يتصوره كذلك . إذن « فجعله خطيئة » قد تفيد : بأن الله جعل المسيح فى نظر الناس كأحد الخطاة . ويؤيد ذلك قول أشعيا النبى : « وأحصى بين العصاة (اش ٥٣ : ١٢) .

فلا يوجد فى هذه النصوص كلها تلميح واحد إلى العدل الانتقامى .

صار لعنة من أجلنا :

« إن المسيح افتدانا من لعنة الناموس وصار لعنة لأجلنا بحسب ما كتب : ملعون كل من علق على خشبة » (غلا ٣ : ١٣) .

يعبر الرسول فى هذا النص الموجز عن الطريقة التى افتدانا بها المسيح . إنه من المعلوم أن كل شر هو لعنة . ولحال الشر على نوعين . إذن تكون اللعنة على نوعين أيضاً . فهناك لعنة الذنب ولعنة العقوبة . فهذا التمييز يفرض قطعاً شرحاً مزدوجاً .

١ — شر الذنب : لقد خلصنا المسيح من خطايانا . والخطيئة كما تقدم فيها الذنب وفيها العقوبة على الذنب . فكما أن المسيح خلصنا من الموت بموته . كذلك أيضاً خلصنا من لعنة الذنب حين صار لعنة ، لا لأن الخطيئة تسربت إلى كيانه فهو القداسة بالذات كما يقر الكتاب : « لم يصنع خطيئة . ولم يوجد فى فمه مكر . كان يُشتم ولا يرد الشتم وكان

يتألم ولا يهدد لكنه فوّض أمره إلى الذى يحكم حكماً عادلا » . (ابطر ٢ : ٢٢) . وإنما صار لعنة لأنه كان يعتبر خاطئاً فى نظر العامة ولا سيما فى نظر الشعب اليهودى ». « لو لم يكن هذا عامل سوء لما كنّا أسلمناه إليك » . (يو ١٨ : ٣٠) وكما يقول الرسول بولس : « الذى لم يعرف الخطيئة صار خطيئة من أجلنا » (٢ كور ٥ : ٢١) .

ولاحظ أن الرسول لا يقول « صار ملعوناً » بل « صار لعنة » ليبيّن بذلك أنه كان فى نظر اليهود من أكبر المجرمين : « إن هذا الرجل ليس من الله لأنه لا يحفظ السبت » (يو ٩ : ١١) . « إننا لسنا لعمل حسن نرجمك . لكن للتجديف ولأنك تجعل نفسك إلها وأنت إنسان » (يو ١٠ : ٣٣) . ولذا يقول الرسول : « صار لعنة من أجلنا » . وقد جاء اللفظ هنا بصيغة التجريد أى اللعنة المشخصة أو اللعنة ذاتها .

٢ — لعنة العقوبة : لقد خلصنا المسيح من العقوبة حتى عقوبة الموت فقد احتمل ما استحققناه نحن بسبب خطايانا نيابة عنا .

فالمسيح الفادى هو أثمن عطية قدمها الله الآب . وأسمى برهان أعطانا إياه دليلاً على حبه نحونا . ونحن نختم هذا الفصل بصلاة جميلة لكاتب سفر « نار الحب المضطرم ». فتعاليمه تتوافق مع تعليم القديس توما الأكوينى .

« ربى وإلهى وحبيبى . إذا كانت ذكرى خطاياى تمنعك من أن تهبنى ما أطلبه منك فلتكن إرادتك . لأن إرادتك هى لى كل شىء . إلهى عاملنى بجودك ورحمتك . فبالجود والرحمة ينتشر اسمك

وتصبح معروفاً من الكل . إذا كان لابدّ من الأعمال الصالحة لتسمع صراخى فهبنى هذه الأعمال الصالحة . اخلقها فىّ . امنحنى المحن التى تراها صالحة لى ولتكن إرادتك .

أما إذا كنت لا تنتظر منى أعمالا لترحمنى ، فلماذا تسكت حتى الآ ن ؟ ولماذا تتأنى علىّ يا ربى وإلهى؟ إنى أطلب منك النعمة والرحمة بواسطة ابنك يسوع المسيح . فخذ ما تريده منى . ولكن هبنى أيضاً الخير لأنك تريده منى .

إلهى – من ذا الذى يستطيع أن يتخلص من قيوده إن كنت لا تسمو به حيث طهارة حبك يا إلهى – كيف يقدر الإنسان الساقط أن يرتفع إليك إن لم تتناوله يدك الخالقة فى رحمة وحنان .

إلهى أرجوك ألاّ تنزع منى ما سبق ومنحتنى إياه بواسطة ابنك الوحيد يسوع المسيح . الذى أعطيتنى فيه كل ما أريده . ولذا ترانى أفرح عندما أعرف أنك لا تتوانى عن الحضور إذا دعوتك .

فهيا يا نفسى إنك من الآن تستطيعين أن تحيى الله الحاضر فيك . فالسموات والأرض والشعوب كلها . الأبرار والخطاة . الملائكة . والعذراء وكل الكائنات هى ملك لك . بل الله نفسه هو ملك لك لأن المسيح هو كله لك .

فيانفسى لماذا تطلبين أكثر من ذلك . لا تنحدرى إلى الصغائر ولا تكتفى بالفتات الساقط من مائدة الآب . انهضى يا نفسى واسكنى فى الله صانع مجدك . اختبئى فيه بفرح وحينئذ سيستجيب إلى رغباتك ».

فالمسيح بموته على الصليب حمل هذه اللعنة التابعة للخطيئة ولذا قيل عنه : « صار لعنة من أجلنا » .

ويؤيد ذلك قول الرسول بولس : « أرسل الله ابنه فى شبه جسد خطيئة (أى خاضعاً للموت) وقوله أيضاً : « الذى لم يعرف الخطيئة (أى الذى كان معصوماً من الخطيئة) جعله الله الآب خطيئة من أجلنا ، أعنى جعله يذوق عقوبة الخطيئة حين قدم نفسه من أجل خطايانا .

وبالاختصار : إن المسيح البراءة ذاتها – قدم نفسه قرباناً من أجل خطايانا . لقد افتدانا ككاهن وضحية مقدماً نفسه ذبيحة تكفير . فلم يكن إطلاقاً ملعوناً من الله .

« لم يشفق على ابنه بالذات بل أسلمه عنا جميعاً » (رو ٨ : ٣٢) .

لم يشفق على ابنه معناه : « لم يدفع عنه الألم لأنه لم يرتكب معصية يستحق عليها المغفرة . فلا ينطبق إذن عليه قول المثل : « من وفّر عصاه فهو يبغض ابنه » . (أمثال ١٣ : ٢٤) .

ولكن كون الآب لم يشفق على ابنه فهذا ليس من أجل فائدة الإبن – فهو مساو للآب فى كل شىء – وإنما لفائدتنا نحن . ولذا يستطرد القديس بولس قائلاً : « بل أسلمه عنا جميعاً » . أى أسلمه إلى الآلام للتكفير عن خطايانا . « الذى أسلم لأجل زلاتنا » (رو ٤ : ٢٥) . ويؤيد ذلك قول أشعيا النبى : « ألقى الرب عليه إثم كلنا » (ا ش ٥٣ : ٦) .

فقد أسلمه الله الآب إلى الموت قصد التجسد الفدائى الدامى . فأوحى إلى إرادة المسيح البشرية المحبة والرحمة التى جعلته قبل الآلام

راضياً طائعاً مختاراً . ولهذا يقول الرسول : « بذل نفسه لأجلنا » .

فكل النعم موجودة فى المسيح كما فى مصدرها الأول والمثالى حسب قول بولس الرسول : « هو قبل الجميع » (كولوسى ١ :١٧) . وحين أسلم إلينا قد وهبنا معه كل شيء . يؤيد ذلك قول القديس بولس : « كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء » بحيث إن الذين يحبون الله كل شيء يعاونهم للخير . . فالثالوث يأتى ويسكن فينا . ثم الأرواح المخلوقة وضعت لخدمتنا ليس فقط فى الرخاء واليسر بل فى الشدة والعسر . « كل شيء هو لكم وأنتم للمسيح والمسيح لله » (ا كور ٢ : ٢٣) . فمن الواضح حسب ما جاء فى المزمور : « أن متقيه لا عوز لهم » (٣٣ : ١٠) .

الفصل الخامس

الاستحقاق ـ الفدية ـ الذبيحة

رأينا مما تقدم عقيدة سر الفداء من زاوية التكفير بالنيابة . وهذا التكفير ـ كما أظن ـ هو الناحية الأساسية من التحليل اللاهوتي . إلا أن وسائل التعبير عنه فقيرة جداً . فأرى أنه من الضروري أن نكمل تلك الفكرة من زاوية الاستحقاق والفدية والذبيحة .

أولا ـ تقدمة الحب : الاستحقاق

« إن خطيئة آدم ـ كما يقول المجمع التردنتي قد غفرت له باستحقاقات يسوع المسيح الذي صالحنا بدمه مع الآب . فعلة تبريرنا الاستحقاقية هي آلام المسيح المقدسة .

المحبة ينبوع الاستحقاق :

الاستحقاق يفترض الحرية . وفي النظام الفائق الطبيعي المحبة هي أساس الاستحقاق . والحال أن المسيح افتدانا عن حرية وعن محبة . وبهذا استحق أن يخلصنا .

وتجب الإشارة هنا إلى أن مصدر الاستحقاق لا يستند إلى الألم

أو المحن ولكن إلى المحبة . وهذا مبدأ فى علم اللاهوت الأدبى واللاهوت التصوفى . أما الآلام والمحن فهى فرصة لامتحان إرادة المرء الصالحة من حيث سرعتها وقوتها. وكما أن الاستحقاق ينبع من المحبة فكذلك من المحبة تنبع الإرادة الصالحة . فقد يحدث أن يأتى إنسان عملا سهلا بذات الإرادة الصالحة فيكون له الاستحقاق عينه الذى يكتسبه آخر عند أدائه عملاً شاقًا . لأن الأول على استعداد بأن يقوم بما يكلفه مشقة أكبر.

فعلى قدر ما يكون الحب قويًا وسخيًا على قدر ما يستطيع التغلب على الصعوبات . فالحب وحده هو مصدر الاستحقاق .

فالنفوس العالية هى التى تحب كثيراً حتى فى الأمور السهلة . لأنه بقدر الحب يقاس الاستحقاق ومنذ أول لحظة بالحبل بالمسيح فى أحشاء العذراء مريم الطاهرة كان الكلمة المتجسد يحوز على فضيلة المحبة . كما أنه كان يحوز على الحرية البشرية بموجب علمه المفاض . فقدّم نفسه عن حب لا عمق له، منذ دخوله العالم، لأجل خلاص البشر . وبهذا كان استحقاقه لا حد له .

ويقر بذلك الكتاب المقدس : « إنه يقول عند دخوله العالم : ذبيحة وتقدمة لم تشأ لكنك ألبستنى جسداً . ولم ترض بالمحرقات ولا بذبائح الخطيئة . حينئذ قلت ها أنذا آت . فقد كتب عنى فى رأس الكتاب لأعمل بمشيئتك يا ألله . . . وبهذه المشيئة قد تقدسنا نحن بتقدمة جسد يسوع المسيح مرة واحدة » (عبر ١٠ : ٥ — ١٠)

وكانت تقدمة المسيح لذاته عن حب لأجل خلاص البشر عميقة

متأصلة فى ضمير المسيح الذى جاء ليخدم لا ليُخدَم .ولقد جدّد المسيح هذه التقدمة بطريقة طقسية فى العشاء الأخير حين قدس الخبز والخمر وحوّلهما إلى جسده الكريم ودمه الطاهر بقوله : « هذا هو دمى للعهد الجديد الذى يسفك عن كثيرين لمغفرة الخطايا » (متى ٢٦ : ٢٨) .

وكانت آلامه دليلا ساطعاً على قصده الفدائى : « أبتِ إن كان مستطاعاً فلتعبر عنى هذه الكأس . لكن ليس كمشيئتى بل كمشيئتك » . ويؤيد هذا القصد كلمات المسيح التى نطق بها على الصليب ، عند نزعه الأخير : « لقد تم كل شىء » .

فقيمة موت المسيح هى فى الاستحقاق وقيمة الاستحقاق فى الحب .

حب الإله المتجسد :

يقول القديس توما إن موت المسيح يمكن اعتباره من ثلاث وجهات :

١ ـ اعتبار الموت فى حد ذاته : فالموت ليس من الله على حسب ما جاء فى سفر الحكمة « ليس الموت من صنع الله . وإنما دخل الموت إلى العالم بواسطة الخطيئة » (حك ٩ : ١٣) فلم يقبل الله موت المسيح من هذا الاعتبار « لأن الله لا يسره هلاك الأحياء » (حك ١ : ١٣) .

٢ ـ الموت من حيث صدوره من الجلادين : فمن هذه الوجهة استنكر الله موت المسيح حسب ما جاء فى سفر الأعمال : « فأنكرتم القدوس الصديق وسألتم أن يوهب لكم رجل قاتل » فموت المسيح من هذه الناحية لم يكن سبباً للمصالحة بل كان سبباً للنقمة .

٣ ــ اعتبار موت المسيح من حيث صدوره من إرادة المسيح المتألم .

فهذه الإرادة الحرة صدرت عن طاعة الآب « وضع نفسه وصار يطيع (الآب) حتى الموت » ، ونبعت من محبته للبشر « أحبنا وبذل نفسه من أجلنا » (اف ٥ : ٢) فبموجب هذه الطاعة وهذه المحبة استحق لنا موت المسيح التكفير عن خطايانا . وكان موت المسيح مقبولاً لدى الله لدرجة أنها كانت كافية لمصالحة الله مع البشر ــ دون استثناء ــ حتى الذين قتلوا المسيح .

استحقاق المسيح وقيمته غير المحدودة :

لقد بلغت محبة الله المتجسد أقصى قوتها منذ أول لحظة من الحبل به . وهذه المحبة غير المدركة جعلته قادراً على تقدمة ذاته من أجل خلاصنا فاستحق لنا استحقاقات لا حد لنهايتها .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن محبة المسيح لم تقبل الزيادة .لأنه يستحق دائماً استحقاقاً لا حد له بواسطة أعماله كلها كبيرة كانت أم صغيرة . فاستطاع بذلك أن يكرر كل حين بنفس الحماس الذى لا يقوى على إخماده شيء : « إنى أفعل ما يرضى أبى كل حين » (يو ٨ : ٢٩) .

وللكتاب الكرمليين فى سلمنك تعبيرات صادقة فى هذا الصدد : قالوا إن كل أعمال المسيح إجمالا استحقت كل ما استحقه المسيح بعمل واحد . وعلى هذا يجب اعتبار استحقاقات المسيح بالإجمال كمجموعة واحدة لا تقبل التجزئة . فما استحقه بعمل واحد استحقه

بكل الأعمال بما فيها الآلام .

وأمام هذه الحقيقة يتساءل البعض :

وآلام المسيح وموته على الصليب ألم يكن لهما تأثير خاص فى عمل الفداء .

الجواب : طبعاً ولا شك فى ذلك . لقد تم الفداء بسفك الدم . ولكن مع ذلك لم تزد درجة المحبة بالآلام والموت على الصليب . لقد ظهرت المحبة فى أعلى درجة من الآلام . ووسط هذه الآلام أراد المسيح أن يتم عمل الفداء موضوعياً .

وما هو قصد الله من ذلك ؟ ـ

قصد الله ذلك ليبين لنا بطريقة محسوسة عمل العدل وعمل الرحمة وارتباطهما بعضهما ببعض .

وقصد الله ذلك ليعطينا من آلامه عبرة . فما أحرانا أن نتعلم منه ونسلك مسلكه ونشعر بحاجتنا إلى الفضائل . ولا سيا فضيلة الطاعة والثبات والتواضع . وفى هذا الصدد كان القديس أغسطين على حق حين قال : إن صليب المسيح لم يكن مجرد آلة تعذيب ولكنه كان منبراً يتكلم من فوقه المعلم .

والأغرب من كل ذلك أن آلام المسيح على الصليب لم تكن ضرورية لأن محبته اللامتناهية كانت كافية فى حد ذاتها لخلاصنا . فالصليب لم يكن ضرورياً للخلاص .

إن محبة المسيح سبقت آلامه وموته على الصليب وأعطتها قيمة لاتقاس

ولا تحدّ . فيسوع حين كان طفلا صغيراً ينظر إلى مريم ويوسف مبتسماً لهما كان قلبه يخفق بذات الحب الذى خفق به قلبه حين كان معلقاً على خشبة الصليب . لقد علمنا الصليب حب الله ومجانيته . فيسوع لم يكن مجبراً على سفك دمه الطاهر ولكنه فعل ذلك ليبرهن لنا على محبته العظمى الحقيقية فى أعلى درجتها . لقد وهبنا كثيراً : وهبنا نفسه بدون تحفظ أو تردد . هذا هو سر البذل والعطاء والتضحية . وفى هذا كله يقوم الاستحقاق وقيمته وعظمته السامية . إن الله لا نهاية له . والله محبة . فالمحبة لا نهاية لها .

المسيح رأس الجسم السرى :

إن المسيح بصفته رأس الجسم السرى الذى نحن أعضاؤه قد استحق لنا الخلاص . وقد سلّط القديس توما النور على هذه الحقيقة فقال : « إن الرأس والأعضاء شخص واحد سرى. ولذا يعمّ وفاء المسيح على كافة المؤمنين بصفتهم أعضاء هذا الجسم . فإن اتحد شخص بشخص آخر بواسطة المحبة يستطيع أى منهما أن يوفى عن الآخر .

فالمسيح مملوء من النعم ليس كشخص فردى وحسب بل بصفته رأس الكنيسة بحيث تتسرب نعمة المسيح الرأس إلى كل الأعضاء . إلى كل الذين غرسوا فى المسيح . فالأعمال التى قام بها المسيح هى أعمال الرأس وأعمال الأعضاء . والأعمال التى تقوم بها الأعضاء هى أعمال المسيح وأعمالنا . وعلى هذا الأساس من يتألم من أجل البر وهو فى حالة

النعمة فقد يستحق بذلك الخلاص على حسب ما جاء فى إنجيل القديس متى : « طوبى للمضطهدين من أجل البر »(متى ٥ : ١٠) . فالمسيح استحق إذن بآلامه لا تمجيده الخاص وحسب بل استحق أيضاً خلاصنا » [١] .

وبهذا نحن نفهم رموز المعمودية وفاعليتها : « فالعماد يشركنا فى آلام المسيح وموته . لقد أعطيت آلام المسيح علاجاً لكل معمد . وكأنه تألم مع المسيح ومات مع المسيح . ولما كانت آلام المسيح وفاء كافياً لخطايا الشعب كله . فمن يتعمد يتحرر من جميع القصاصات المستحقة على الخطايا وكأنه قدم تكفيراً كاملا كافياً عن جميع خطاياه . (س ٦٩ ف٢) فبمحبته يحقق المسيح رأس الجسم السرى تحقيقاً تاماً الشرطين المطلوبين للوفاء بالنيابة : شرط التضامن بين المذنب والبرىء . وشرط قبول هذا التضامن من الشخص المهان والرضى عنه .

فالتضامن بين المسيح البرىء ونحن الخطأة متوفر فى طبيعة المحبة . « لأن المحبة هى رباط الكمال » (كولوسى ٣ : ١٤) التى تجمع بين المتحابين . فالآب والمسيح ونحن ، كلنا واحد فى المحبة . هذا من جانب التضامن . أما من جانب قبول هذا التضامن من الله الآب فمتوفر هو الآخر لأن الحب الإلهى إنما يعدد من الجودة والرحمة وسخاء الله .

---

(١) الخلاصة اللاهوتية ق ١ — ٢ س ١١٤ : « إن الاستحقاق يقاس بمقياس النعمة الإلهية والمحبة .

فالمسيح الكلمة المتجسد « المملوءنعمة وحقاً » كان فى مقدوره أن يستحق عن عدل لكل أعضاء الجسم السرى « لأنه من امتلائه نحن أخذنا جميعاً » .

ثالثا ــ ثمن الدم : الفداء والاكتساب

الفداء :

ماذا يقول الكتاب فى هذا الموضوع ؟ فلنستمع إلى هذه النصوص :

« احذروا لأنفسكم ولجميع القطيع الذى أقامكم فيه الروح القدس أساقفة لترعوا كنيسة الله التى اقتناها بدمه» (اع ٢٠ : ٢٨)

« لأنكم قد اشتريتم بثمن كريم . فمجدوا الله واحملوه فى أجسادكم » (١ كور ٦ : ٢٠)

« فقد اشتريتم بثمن فلا تصيروا عبيداً للناس » (١ كور٧ : ٢٣)

« عالمين أنكم لم تفتدوا بما يفسد من الفضة والذهب بل بدم كريم دم حمل لا عيب فيه ولا دنس وهو المسيح » . (١ بط ١ : ١٨)

« مستحق أنت أن تأخذ الكتاب وتفض ختومه لأنك ذبحت وافتديتنا لله بدمك من بين كل قبيلة ولسان وشعب وأمة » (رؤ ٥ : ٩)

فنصوص الكتاب واضحة فى هذا الموضوع : فالمسيح قدّم دمه ثمناً لافتدائنا وشرائنا . وتقديم الثمن للشراء استعارة يجب أن نتفهمها . فقد قال القديس توما فى هذا الشأن :

يقع الخاطئ تحت نير عبودية مزدوجة : عبودية الخطيئة والشيطان الذى يجر إلى الخطيئة. وعبودية العقاب المستحق على هذه الخطيئة المرتكبة (فتحمل العقاب عن اضطرار وعدل يجعل من الإنسان عبداً . على نوع ما . فهو مخلوق حر، سيد أعماله، فبالخطيئة يجبر مكرها على تحمل

العقاب) . والحال أن المسيح بآلامه قد كفّر تكفيراً زائداً على جميع خطايا الجنس البشري وعلى كافة القصاصات المستحقة على الخطايا . إذن فصحيح أن آلام المسيح أجرت خلاصنا بصورة الافتداء والتحرير والشراء وكأنها ثمن دُفع لتحريرنا من نير العبودية المزدوجة عبودية الخطيئة وعبودية العقاب .

ولفظ « ثمن » له مايبرّره . فإنه مستعمل عادة لكل تكفير يحرّر سواء من الخطيئة أو من القصاص . كما جاء فى دانيال النبي : « افتد خطاياك بالصدقة » (٤ : ٢٤) .

من المؤكد أن المسيح افتدانا لا بالفضة ولا بشيء آخر من حطام هذه الدنيا ولكنه افتدانا ببذل ذاته . لقد قدّم أحسن ما يمكن تقديمه . فآلام المسيح هى الفدية المقدمة من أجلنا .

وينبغي الإشارة هنا إلى أن القديس توما كان حكيما فطناً حين استخدم الاستعارة الملطفة فقال : « إن آلام المسيح هى على نوع ما ثمن الفداء » . ولم يقل إن الآلام هى الثمن . فلم هذا التحفظ فى التعبير ؟ ذلك لأنه أراد أن يتحاشى التعليم بالنظرية القانونية التى تزعم أن ثمن الفداء دفع إلى الشيطان وهى نظرية يرفضها توما رفضاً تامًّا . لأن الثمن لم يدفع إلى الشيطان بل دفع إلى الله تعالى[١] .

---

(١) ليس المجال هنا التوسع فى نظرية بعض الآباء حول سر الفداء . ويكفى الإشارة بأن للشيطان دوراً فسره الآباء بصور مختلفة فى النظريات الثلاث : النظرية القانونية والسياسية والشعرية .

=

إن ثمن الفداء قد دفعه الله إلى الله ذاته . هذا هو التعبير الصحيح على شرط أن نتجنب مفهوم العدل المتبادل (هات وخذ) والقديس توما يلح فى هذا الموضوع ويحذرنا من اعتبار الإنابة من هذه الزاوية . لأن عمل الفداء هو عمل مجانى يتجلى فيه الحب والرحمة والحنان .

لقد صفح عنا الله ووهبنا كل شيء حبًّا بالمسيح وفى المسيح .

فالثمن الذى دفعه المسيح بواسطة آلامه والذى حررنا به من عبودية الخطيئة وعبودية العقاب هو من صنع الحب الإلهى : « الذى لنا فيه الفداء بدمه مغفرة الخطايا » (كولوسى ١ : ٤) . فعبارة « الفداء بدمه » عبارة صحيحة إذا أحسن فهمها .

وهناك توافق تام بين تعليم الكتاب المقدس وتعليم القديس توما الأكوينى .

فلفظ (Lutorn) اليونانى يفيد أولا « الثمن » . وقد يكون بولس الرسول استعار هذا اللفظ من التقليد اليونانى الذى بموجبه كان يتم تحرير العبيد فى مقابل ثمن يدفع . والذى يهم القديس بولس هنا بنوع خاص

=فقوام النظرية القانونية أن ثمن الفداء قد دفع إلى الشيطان وكأنه عقد بيع تم بين الله والشيطان . وقوام النظرية السياسية أن الشيطان ذهب ضحية سوء استخدامه سلطته ضد المسيح حين عذبه على الصليب ولم يكن عليه سلطان أو أى حق من الحقوق .

وقوام النظرية الشعرية أن المسيح ينتقم من الشيطان ويأخذ ثأره بأن يجرده من سلطانه على البشر .

إن النظرية الأولى قد رفضها بالإجماع كل الآباء . أما النظريتان الأخريان فتتضمن جزءاً من الحقيقة .

ليس هو تحرير أهل كورينتس وإنما هو ارتباطهم الجديد بالمسيح وملكيته عليهم .

فالبشرية فى نظر القديس بولس أصبحت ملكاً لله بموجب عقد تم الاتفاق على كل شروطه ولا سيما الشرط الأساسى وهو « دفع الثمن » . فيقول : لأنكم اشتريتم بثمن كريم . فمجدوا الله واحملوه فى أجسادكم ». ويقول أيضاً قد اشتريتم بثمن فلا تصيروا عبيداً للناس »[1] .

وهنا يشير الأب Prtaarra إلى أن الاستعارة لم تستكمل من كل وجوهها فالرسول لم يتكلم عن الشخص الذى يطلب الثمن أو الذى يتقبله[2] . متاجرة . فلا يترك السجان سجينه إلا إذا ضمن عدم الضرر ولا يسلم فلا يستنتج إذن من نصوص القديس بولس أن الفداء عبارة عن التاجر بضاعته إلا إذا ضمن عدم الخسارة [3].

ويفيد لفظ (Lutrou) ثانياً « أداة التحرر » دون الإشارة إلى دفع الثمن . فالآداب اليهودية واليونانية الشائعة فى عصر المسيح كانت تستعمل اللفظ فى هذا المعنى وكذلك الكتاب المقدس فى العهد الجديد .

إن القديس بولس لا يعير اهتماماً للمفهوم القانونى الخاص بالعقاب ذلك لأن القانون لا يعمل حساباً لاستعدادات المحكوم عليه الداخلية فالقانون لابدّ أن ينفذ والعدالة لا بدّ أن تقتص من المحكوم عليه شاء أم أبى .

---

(١) ١ كورنثس ٦ : ٢ و ٧ : ٢٣.

(٢) (Prat. Théologie St. Paul IIp·230)

(٣) إن الذى تحدث عن الثمن المدفوع لله هو القديس توما وليس الكتاب المقدس.

أما آلام المسيح فى نظر القديس بولس وكتبة العهد الجديد فلن يكون لها قيمة إلا إذا أرادها المسيح ورضى بها ورغب فيها . وهذا ما يبيّنه فعلا الرسول فى رسائله حين يتكلم عن موت الفادى فيقول : إن موت المخلص على الصليب هو أبرز دليل على محبة الله للبشر وعلى محبة المسيح لله وللبشر . إن موته هو الوساطة أو حلقة الاتصال بين طاعته ومحبته .

الاقتناء والفداء :

لقد سبق ورأينا حين تكلمنا عن قصد التجسد الفدائى أن سر الفداء يتضمن القيامة والصعود . فحصر الفداء كله إذن فى فكرة « الثمن » هو عدم إلمام بمفهوم الفداء . نفسه فتفسيرات نصوص الكتاب المقدس تفرض أن يكون للفداء مفهوم أكثر اتساعاً من مفهوم الثمن المدفوع . وفى هذا الصدد يقول الأب Lyonnet :

« إن العهد الجديد يوجهنا فى كلامه عن سر الفداء إلى مفهوم يختلف عن مفهوم دفع الثمن لتحرير العبيد أو السجناء . فلقد جاء مثلا فى رسالة بولس إلى تيطس : « الذى بذل نفسه لأجلنا ليفتدينا من كل إثم ويطهر لنفسه شعباً خاصًّا غيوراً على الأعمال الصالحة » (تيطس ٢ : ١٤) ففى هذا النص إشارة واضحة إلى حادثتين كبيرتين فى تاريخ الشعب الإسرائيلى . حادثة تحرّرهم من العبودية الفرعونية وحادثة العهد الذى قطعه الله فى سيناء . والحادثتان ترمزان إلى « الخلاص المسيانى » ويأتى ذكر الحادثتين بكثرة على صفحات الكتاب المقدس وكأنهما

أنشودة الشكر لله والرجاء به . وكان اليهود يجمعون بين الحادثتين لأن الواحدة تكمّل الأخرى . وتكونان سرًّا واحداً فى مظهرين : الواحد سلبى والآخر إيجابى .

وكذا فى العهد القديم فإن الخلاص من العبودية المصرية إنما كان أول مرحلة من مراحل الخلاص . فالخلاص لن يتم ولن يكتمل إلا بمعاهدة سيناء . فإسرائيل لم يتخلص من فرعون إلا لكى يصير شعب الله .

وعلى هذا النحو يكون مفهوم الفداء . فالفداء يتضمن أولا وأساساً عنصراً إيجابيًّا أى عنصر الاقتناء والاكتساب والملكية. فإن الله قد افتدانا من العبودية ليجعلنا ملكاً له . بل إن الفداء لم يكن إلا لهذا الغرض حتّى أضحى مفهوم الفداء ومفهوم الاقتناء فى نظر اليهود متقاربين إلى درجة التوحيد بينها وأخذ الواحد بدلا من الآخر .

ولهذا السبب قد نجد فى العهد الجديد كلا المفهومين : « الثمن المدفوع » Lutron «والاقتناء» . وأن هذا الاقتناء سوف يكتمل بصورة تامة فى السماء ، (الفداء الاسكاتولوجى) عند ما ينتصر الابن على العدو الأخير أى الموت . وحينئذ يسلم المسيح ملكه لله الآب ليكون كلا فى الكل (راجع اكور ١٥ : ٢٤ – ٢٨) .

فالفداء فى نظر القديس بولس هو تحرير وشراء . خلاص واقتناء كما يفيد بذلك التعبير اللاتينى redimere . أو هو — على حسب التعبير الإنجليزى : « إرجاع الاتحاد بين الله والناس » atonement .

ففداء المسيح للمسيحيين لم يتم على حسب طريقة تحرير العبيد عند

اليونان . وإنما تم على طريقة تحرير شعب إسرائيل فى سيناء . فقد حرّر شعبه مقابل عهد تم التوقيع عليه بالدم حتى يصبح الشعب ملكاً خاصاً بالله وعزيزاً عليه .

وكما كان الله يخلص ويفتدى فى العهد القديم كذلك المسيح يخلص ويفتدى فى العهد الجديد مع حفظ النسب . فإن « يهوى » يدعى فى العهد القديم قاضياً وملكاً وعريساً وربًّا وراعياً . . . وكذلك المسيح يدعى فى العهد الجديد قاضياً وملكاً وعريساً وربًّا وراعياً . إذن فالمسيح هو إله .

إن التحرير هو شيء إيجابى يعنى ملكية الله على الإنسان . وتحريرنا الذى حققه المسيح قد كلفه الكثير (وهذا هو العنصر الجديد الذى لم يلمح إليه العهد القديم) لقد كان كثيراً من الدموع والعرق والدم .

وقد ردد القديس توما الأكوينى صدى هذا التعليم الموحى به مبيّناً الوجهة الإيجابية المكملة لسر الفداء أى سر رجوع الإنسان إلى الله فى المسيح القائم من بين الأموات . كما بيّن فى تحفظ شديد مفهوم الثمن الذى دفع لتحقيق هذا الرجوع . وأن ثمن دم الكلمة المتجسد يلعب دوراً هاما فى سر رجوع الإنسان إلى الله . ولن يدرك هذا السر إلا بمفهوم حب الله الرحيم .

ثالثاً ــ التقدمة والملاشاة : الذبيحة

الذبيحة فى علم اللاهوت :

الذبيحة عقيدة إيجابية عنصرها الأساسى التقدمة . فكل ما يقدم لله

من أجل عبادته يقال له ذبيحة . بل كل ما يقدم لله ليكشف عن العلاقة الموجودة بينه وبين الإنسان يقال له ذبيحة .

وعلى هذا الأساس يتبيّن التمييز بين الذبيحة الباطنية غير المنظورة وبيّن الذبيحة الخارجية المنظورة . فالأولى هي تقدمة الإنسان ذاته وعقله وإرادته لله تعالى والثانية هي سر أي علامة حسية مقدسة للذبيحة الباطنية .

ولاحظ أن كل ذبيحة هي قطعاً تقدمة . ولكن ليست كل تقدمة هي ذبيحة . ثم إن الذبيحة الخارجية المنظورة تقوم في تقدمة كائن حسى ثم ملاشاته . كالحيوان الذى يذبح أو يحرق أو كالخبز الذى يكسر ويؤكل . فالتقدمة ليست قائمة لخدمة الملاشاة بل الملاشاة تقوم لخدمة التقدمة . لن يرضى الله بالملاشاة لأجل ملاشاة الشيء . ولكن تكريماً له وإعلاناً منا بأنه هو رب الموت لأجل الحياة . لا لأنه رب الحياة فيستطيع أن يميت . ولما كان الإنسان خليقة فما أحراه أن يعترف بأن كل ما هو بين يديه إنما هو ملك الله المبدأ الأول وأن كل شيء إنما يجب أن يرجع إلى الله الغاية الأخيرة . هذا هو المعنى الذى ترمز إليه الذبيحة . إن الإنسان يقدّم مما أخذه من الله اعترافاً بسموه وسلطانه المطلق .

والمحرقات هي أكمل الذبائح لأنها تعبّر عن ذبيحة الإنسان الباطنية أي تقدمة ذاته وكيانه لله تعالى وهذا ما كان يُشير إليه إحراق الذبائح في العهد القديم .

وكانت الذبائح تحرق كلها اعترافاً من الإنسان بالهبة التامة وإجلالا لعظمة الله واعترافاً بسخائه وجودته .

إن الذبيحة الخارجية لا تأخذ معناها إلا من الذبيحة الباطنية . وهكذا تصبح الذبيحة الخارجية رمزاً بل أداة للذبيحة الباطنية . أو بمعنى آخر : إن الله لا يحتاج إلى دم التيوس والثيران ولا لأى ذبيحة أخرى خارجية ولا حتى للذبيحة الباطنية . فهو لا يجنى أية فائدة شخصية من العبادة التى نقدمها له وذلك لأنه لا ينقصه شىء فهو كلى الكمال ولا حد لسموه وجلاله . وإنما إذا تفهمنا العبادة على حقيقتها انتفعنا نحن بتقدمنا فى المحبة .

ولهذا الغرض تقدم الذبائح لمجد الله وسعادتنا .

وما قلناه عن الذبائح ينطبق أيضاً على التكفير من أجل خطايانا . فمغفرة الخطايا لا تتم إلا بإفاضة النعمة وكذلك لن يكون التكفير جديراً بالله إلا عن طريق المحبة التى تعتبر عطية الرحمة والحنان كما سبق وتقدم ذكره .

من العهد القديم إلى العهد الجديد :

كان لذبائح العهد القديم فائدة مباشرة وهى إبعاد الشعب المختار من عبادة الأوثان . فكان على هذا الشعب أن يعرف الإله الحقيقى ويكرمه بواسطة العلامات الحسية . وكان يعرف أن الذبائح الخارجية هى باطلة إن لم تصحبها الذبيحة الباطنية .

ثم فضلا عن ذلك كانت كل هذه الذبائح رمزاً للذبيحة الحقيقية ذبيحة الصليب ، مصدر كل تبرير . والذبائح تهمنا من أجل هذا الاعتبار بالذات .

والقديس بولس يعلمنا بأن الله جعل ابنه كفارة بدمه (رو ٣ : ٢٥) ويقول أيضاً فى رسالته إلى العبرانيين : « بأنه لا مغفرة إلا بسفك الدم » (عبر ٩ : ٢٢) ويلزم لحسن تفهم معنى سفك الدم التاريخى أن نلمّ بمعنى التكفير فى نصوص الكتاب . فالتكفير هو أولا وقبل كل شىء الرجوع إلى الله .

وقد قال الأب Lyonnet فى هذا الصدد :

إن التكفير فى مفهوم الكتاب المقدس يقوم فى مغفرة الخطايا أين وجدت سواء وجدت فى الشعب الإسرائيلى أو فى الإنسان كل إنسان . والخطيئة ليست كالوحمة المادية فى مقدور الإنسان أن يزيلها متى شاء . وإنما الخطيئة فى مفهوم الكتاب هى تمرد إسرائيل وتمرد الإنسان على الله . فلهذا السبب تسمى الخطيئة فى عرف اللاهوتيين « الانصراف عن الله والابتعاد عنه » . فالتكفير يمحو الخطيئة بإرجاع حضور الله إلى إسرائيل : إلى شعبه وهكذا يتم الاتحاد من جديد بين الله والإنسان .

فمن هذه الوجهة — وجهة الرجوع بالله — يتخذ سفك الدم معنى إيجابيًّا أصليًّا فى كل ذبائح العهد القديم .

إن فى ديانات الشعوب الشرقية القديمة تحتل الملاشاة عادة المركز الأول . أما فى إسرائيل فإن سفك الدم هو الذى يحتل دائماً المركز الأول ، وكانت الذبائح لا ينحرها إلا رئيس الكهنة فى العيد الكبير (Kippur)

وعلى هذا النحو يكون خطراً اتخاذ الديانات الوثنية مثالا للديانة اليهودية .

والآن أرى من الضرورى أن نلقى نظرة ولو عابرة على أهم الذبائح اليهودية وهى : ذبيحة الحمل الفصحى . وذبيحة العهد — وذبيحة التكفير .

دم الحمل الفصحى :

لقد ذكر سفر الرؤيا مرتين « دم الحمل » فى الإصحاح ٧ : ١٤ وفى الإصحاح ١٢ : ١١ وأشار إليه ضمنياً القديس بولس فى (اكور ٥ : ٧) . وفى هذه النصوص لم يكن لدم الحمل وظيفة تهدئة غضب يهوى وإنما لتعيين بيوت الشعب ابن يهوه البكر فلا تحل بهم ضربة الملاك فالكلام إذن عن طقس تكريسى لفرز إسرائيل عن الشعب الوثنى وجعله شعباً خاصاً بالله .

فالكتاب يسمى الفصح ذبيحة : « وإذا قال لكم بنوكم ما هذه العبادة لكم فقولوا هى ذبيحة فصح للرب الذى عبر عن بيوت بنى إسرائيل بمصر إذ ضرب المصريين وخلص بيوتنا » .

إذاً هذه الذبيحة الفصحية هى ذكرى لليوم الذى ضرب فيه يهوى المصريين وخلص إسرائيل من العبودية التى ترمز إلى عبودية الخطيئة .

والمؤرخ الكنسى يوسف فلافيوس يؤكد بأن أبناء إسرائيل كانوا بهذه الذبيحة يطهرون بيوتهم .

دم العهد :

إن معنى رش الدم يبدو أكثر وضوحاً فى ذبيحة العهد مما فى ذبيحة

الحمل الفصحى . لقد كان الخدم يقومون بالملاشاة فى ذبيحة العهد لأن الملاشاة كانت طقساً ثانويًّا يهيئ لطقس آخر أساسى . كما جاء فى سفر الخروج : « وبعث فتيان بنى إسرائيل فأصعدوا محرقات وذبحوا ذبائح سلامة من العجول للرب » (خر ٢٤ : ٥) .

أما موسى فكان يقوم هو شخصيًّا بالطقس الأساسى فيرش الدم على المذبح ثم على الشعب بعد تلاوتهم العهد الذى بته الله بينهم وبينه ووعدهم إياه بحفظه .

ولقد كان التوقيع بالدم على عقد مبرم بين طرفين كما هو الحال فى عقد الصداقة بين شخصين يقيم اتحاداً روحيًّا بين المتعاقدين .

وهكذا فى ذبيحة العهد الذى وقعه موسى باسم يهوى مع شعبه المختار يشير الدم إلى الروح ويشير المذبح إلى يهوى كما أن رش الدم على المذبح والشعب يشير إلى التعاقد بين الطرفين — الله وإسرائيل — .

فاتصال الدم الواحد — أى الروح الواحدة — بالطرفين يجعلهما روحاً واحدة .

والحال أن المسيح فى الأناجيل المقابلة لم يتكلم عن دمه إلا مرة واحدة وذلك حين تأييسه سر الافتخارستيا . وفى هذه المرة الواحدة إنما يشير المسيح بصراحة إلى هذه الذبيحة — ذبيحة العهد . « هذا هو دم العهد الجديد » (متى . مرقس) وجاء فى إنجيل القديس لوقا : « هذه الكأس العهد الجديد بدمى » (لوقا ١١ ا كور ١١) .

وعليه فكل التلميحات التى أشارت إلى دم المسيح الافخارستى

(كما هو فى يوحنا الإصحاح السادس ورسالة القديس بولس إلى أهل كورنتس الإصحاح العاشر) ينبغى ربطها — ولو جزئيًّا — بذبيحة العهد. ولاسيما النصوص التى تقرر بأن إسرائيل الجديد أصبح شعب الله بواسطة دم المسيح كما جاء فى سفر الأعمال وسفر الرؤيا .

« فاحذروا لأنفسكم ولجميع القطيع الذى أقامكم فيه الروح القدس أساقفة لترعوا كنيسة الله التى اتتناها بدمه » (اع ٢٠ : ٢٨) .

« لأنك ذبحت وافتديتنا لله بدمك من بين كل قبيلة ولسان وشعب وأمة » (رؤ ٥ : ٩) .

دم الكفارة :

تكلم القديس بولس أكثر من مرة عن دم المسيح وعن علاقته بالذبيحة التكفيرية . فقد جاء فى رسالته إلى أهل روميه : « الذى (المسيح) جعله لله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره بمغفرة الخطايا السالفة » (رو ٣ : ٢٥) .

فالدم فى الواقع يلعب دوراً هامًّا فى ذبيحة التكفير ولا يقل عنه أهمية فى ذبيحة العهد . فكان رش الدم سبع مرات على مذبح المحرقة يعتبر طقساً رئيسيًّا حتى إنه لم يكن يسمح لرئيس الكهنة بالدخول إلى قدس الأقداس إلا مرة واحدة فقط فى السنة للقيام بهذه المهمة من وراء الحجاب. أما غاية الرش فكانت للتطهير والتقديس . فواضح إذن أن الأمر خاص بطقس تكريسى . والكتاب المقدس يعلمنا بأن العبرانيين كانوا ينسبون

إلى الدم وظيفة التطهير والتكريس لاعتقادهم بأن الدم إنما هو حيّ . كما جاء فى سفر الأحبار .

«لأن نفس الجسد هى فى الدم ولذلك جعلته لكم على المذبح ليكفر به عن نفوسكم لأن الدم يكفر عن النفس » (اح ١٧ : ١١) .

فالدم فى اعتقاد اليهود يعطى الحياة بل هو والحياة شيء واحد . ولذلك فهو يكرس للرب أى يطهر الإنسان .

وهنا يشير الأب ليونيه إلى أن ذبيحة التكفير التى تدل على النيابة والعقاب (موت الضحية نيابة عن الخاطئ المستحق الموت) فكرة دخيلة منذ عهد النهضة أخذت تشيع بين مفسرى الكتاب المقدس لإثبات وجهة نظرهم فى قضية الإنابة فى العقاب . غير أن الطقوس المذكورة فى سفر الأحبار أو سفر دانيال لا تقصد هذا المعنى على الإطلاق[1] .

والضحية التى تقدم فى ذبائح الخطيئة أو فى ذبائح التكفير تعتبر دائماً طاهرة مقدسة . فقد جاء فى سفر الأحبار : « كل من مسها يكون مقدساً » (اح ٦ : ١٨) .

ولذا لا ينبغى أكلها إلا فى موضع مقدس كما جاء فى اح ٧ : ٦ « كل ذكر من الكهنة يأكل منها فى موضع مقدس » وكذلك فى اح ٤ : ١٢ : «العجل جميعه يخرجه إلى خارج المحلة إلى موضع طاهر ». وتعامل الذبائح

(١) هى القضية الخاصة بالعدل الانتقامى وهى بعيدة كل البعد عن تعليم القديس توما الخاص بالمسيح الفادى . إلا أن القديس توما لا ينفى الإنابة فى العقاب فى بعض ذبائح العهد القديم .

بكل احترام كما يعامل القربان المقدس . « هذا قربان هرون وبنيه الذى يقربونه للرب يوم مسحه . . . تقدمة مفتوتة تقربها رائحة رضى للرب » .

ويقال للذبيحة التى يسفك دمها : « ذبيحة للرب » كما جاء فى أحبار ١٦ : ٨ :

« ويلقى هرون عليهما قرعتين إحداهما للرب والأخرى لعزازيل . ويقرب هرون التيس الذى وقعت عليه القرعة للرب ويعمله ذبيحة خطاء » .

أما بالنسبة لكبش الفداء الذى يحمل الخطايا فإنه من المفروض أن يكون غير طاهر لا بل كل من يقربه يصبح نجساً . ولذلك فهو لا يقدم ذبيحة إنما يطرد فى الصحراء — مسكن الشياطين . إن دم هذا الكبش لا يسفك وبالتالى لا يحقق شروط الذبيحة .

فهذه العادة الشعبية القديمة مهما بلغت سذاجتها — تعتبر طقساً مغايراً لسائر طقوس المحرقات والذبائح ولا سيما ذبائح الإثم [1] .

وبالاختصار لا يوجد فرق جوهرى بين ذبيحة التكفير وذبيحة العهد فى كلا الذبيحتين لابد من إراقة الدم إما لإيجاد الاتحاد بين الشعب المختار وبين الله . وإما لإرجاع هذا الاتحاد فى حالة الانفصال حسبما

---

(١) هل يرمز كبش الفداء إلى المسيح ؟ يوجد رأيان .

الرأى الأول رأى قديم يخالف نصوص الوحى ويتباين مع معناه ذلك لأنه أسقط فكرة إرسال التيس إلى برية عزازيل وإلقاء الخطايا عليه وهذا جوهر الموضوع فى كبش الفداء .

والرأى الثانى ظهر فى عهد النهضة . وهو يتمسك بالنص ولكنه لا ينطبق على تعليم الفداء.

ومن هنا يتضح لنا ضرورة التعاون بين تفسير الكتاب والتعليم اللاهوتى .

يكون الكلام عن إبرام العهد أو التكفير عن الإثم . فإن تهدئة غضب الله هي في الوقت نفسه مصالحة الإنسان مع الله وإقامة اتحاد جديد معه أما إذا أبعدنا الوجهة الإيجابية في معنى سفك الدم الذي يعتبر علامة الاتحاد مع الله في الحب فإننا نفقد بذلك معنى الرمز الموجود في طقوس العهد القديم الخاصة بإراقة الدم .

الذبيحة الأسمى :

« إن الله الذي كلم الآباء قديماً في الأنبياء كلاماً متفرق الأجزاء مختلف الأنواع كلمنا أخيراً في هذه الأيام في الابن الذي جعله وارثاً لكل الأشياء وبه أنشأ الدهور. وهو ضياء مجده وصورة جوهره وضابط الجميع بكلمة قوته . وبعد ما طهر الخطايا جلس عن يمين الجلال في الأعالي » (عبر ١ : ١) .

كلما ارتفعت الكلمة في السمو والبساطة والبلاغة كانت أكثر كمالا. والحال أن كلمة الله لبس جسدنا فلا بد من أن يكون أكثر فاعلية وبساطة من كلام الأنبياء . والواقع أن كلمة الإنجيل ملخص للشريعة كلها . فالشرائع الأدبية كلها الخاصة بالناموس والأنبياء متضمنة في وصيتي المحبة كما جاء في إنجيل القديس متى : « بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء » (متى ٢٢ : ٤٠) .

وكذلك ذبائح العهد القديم كلها ــ التي كانت رمزاً لذبيحة العهد الجديد ــ متضمنة في ذبيحة واحدة حقيقية هي ذبيحة المسيح « الذى

بذل نفسه لأجلنا قرباناً وذبيحة لله رائحة مرضية » (أفس ٥ : ٢) .

إن أسمى عطية وهبها الله للجنس البشرى الساقط هى ابنه الوحيد . وعلى هذا فإن أسمى ذبيحة هى ذبيحة المسيح . أو كما قال بوسويه الواعظ الشهير : لا يوجد فى العالم ما هو أسمى من المسيح . ولا يوجد فى المسيح ما هو أسمى من الذبيحة » .

لقد كانت كل ذبائح العهد القديم تقدم رمزاً للذبيحة التامة الفريدة فى نوعها — ذبيحة المسيح . فيلزم إذن أن تفسر كل رموز ذبائح العهد القديم على ضوء ذبيحة المسيح الحقيقية . وفى هذا الصدد يقول القديس بولس : لأنه إن كان دم تيوس وثيران ورماد عجلة يرش على المنجسين فيقدسهم لتطهير الجسد فكم بالأحرى دم المسيح الذى بالروح الأزلى قرّب نفسه لله بلا عيب يطهر ضمائركم من الأعمال الميتة لتخدموا الله الحى» (عبر ٩ : ١٣) .

وفى الواقع لقد حقق ابن الله بواسطة سفك دمه فداء نفوسنا وأجسادنا فداء أزلياً .

ويشير القديس توما هنا إلى أن الرسول شرح فاعلية دم المسيح ودعمها بثلاث وجهات . فالواقع أنه يجب اعتبار الشخص الذى سفك الدم . ثم لماذا سفكه ؟ وكيف سفكه ؟ .

فالشخص الذى سفك دمه لم يكن شخصاً بشرياً بل هوابن الله ذاته الذى اتخذ طبيعتنا البشرية . ومن هنا يتضح قدرة دمه على التطهير كما جاء فى إنجيل القديس متى : « هو الذى يخلص شعبه من خطاياهم »

(متى ١ : ٢١) .

أما السبب الذى من أجله سفك المسيح دمه فهو من دفع الروح القدس لكى يفتدينا المسيح حباً لله وللقريب كما يقول أشعيا النبى : « يأتى كنهر متدفق يدفعه روح الرب » (اش ٥٩ : ١٩) والحال أن الروح يطهر كما جاء فى أشعيا : « إذ يرحض السيد قذر بنات صهيون ويمحو الدماء من صهيون بروح العدل وروح الاحتراق » .

ولهذا يقول الرسول بولس : « المسيح الذى بالروح الأزلى قرّب نفسه لله » (عبر ٩ : ١٤) وقال أيضاً : « أحبنا المسيح وبذل نفسه لأجلنا قرباناً وذبيحة لله رائحة مرضية » (أفس ٥ : ٢) .

ولا بد أن يكون المسيح طاهراً ليطهرنا ولذا يقول ابن سيراخ : « بالنجس ماذا يُطهر ؟ » (ابن سيراخ ٣٤ : ٤) .

والمسيح هو فى الوقت نفسه الكاهن الأعظم وقربان الذبيحة : لأنه قدّم نفسه راضياً طائعاً .

إن ذبيحةُ الصليب هى معاً ذبيحة التكفير وذبيحة العهد .

هذه هى ذبيحة الكاهن الأعظم على حسب طقس ملكى صادق ذبيحة حمل الله .

هذا هو حمل الله :

إن ذكرى تحرير الشعب اليهودى من عبودية المصريين كانت سبباً فى إنشاء وليمة الفصح : هذا هو السبب التاريخى أما السبب النبوى

لإقامة الفصح فهو الرمز إلى ذبيحة الصليب . لقد كان اليهود يذبحون كل يوم فى الهيكل حملين ؛ الواحد فى الصباح والآخر فى المساء . وكانت هذه الذبيحة غير متغيرة ودائمة لأنها كانت من أهم الذبائح وأسماها . إنها رمز لذبيحة المسيح الأسمى .

ويقال للمسيح : حمل الله لأسباب مختلفة أولا : من أجل طبيعته البشرية والإلهية . فبطبيعته الإلهية استمدت ذبيحة المسيح قيمة تكفيرية وتعويضية . فقد صالحنا الله مع نفسه فى المسيح حسب قول القديس « إن الله هو الذى كان فى المسيح مصالحاً العالم مع نفسه غير حاسب عليهم زلاتهم » (٢ كور ٥ : ١٩) وبطبيعته البشرية قدم المسيح نفسه ذبيحة وقرباناً من أجلنا .

ثانياً : يقال للمسيح حمل الله أى الحمل الذى قدمه الله أى المسيح نفسه .

وثالثاً : يقال للمسيح حمل الله أى حمل الله الآب لأن الآب هو الذى أعطاه السلطان بأن يقدم نفسه قرباناً من أجل خطايا العالم . فإن إسحق حين سأل إبراهيم أباه : أين الحمل للمحرقة ؟ أجابه إبراهيم : الله يرى له الحمل للمحرقة (تك ٢٢ : ٧) . « وهكذا فإن الله لم يشفق على ابنه بالذات بل أسلمه عن جميعنا » (رو ٨ : ٣٢) .

وقد سمى المسيح حملا من أجل نقاوته : كما جاء فى رسالة القديس بطرس « إنكم لم تفتدوا بما يفسد من الفضة أو الذهب . . . بل بدم كريم دم حمل لا عيب فيه ولا دنس وهو المسيح » (١ بط ١ : ١٨) .

ثم بسبب وداعته : كما جاء فى أشعيا « كان صامتاً مثل حمل سيق إلى الذبح » (اش ٥٣ : ٧) . وبسبب الخير الذى يجود به علينا من ثياب وطعام . فقد جاء فى سفر الأمثال ٢٧ : ٢٦ « الكباش للبوسك » . وأيضاً فى رسالة القديس بولس إلى اللامانيين ١٣ : ١٤ « البسوا الرب يسوع » .

وفى إنجيل القديس يوحنا » والخبز الذى سأعطيه هو جسدى لحياة العالم .

وهذا الحمل إنما يرفع خطايا العالم : ذلك لأنه لا يمكن أن دم الثيران والتيوس يزيل الخطايا حسب ما جاء (فى عبر ١٠ : ٤) . وإنما « حمل الله » فهو يرفع كل إثم . (هوشع ١٤ : ٣) وكما جاء أيضاً فى رسالة القديس بطرس : « وحمل هو نفسه خطايانا فى جسده على الخشبة لكى نموت عن الخطايا فنحيا للبر » (١ بط ٢ : ٢٤) وجاء أيضاً فى أشعيا : « أخذ عاهاتنا وحمل أوجاعنا » (اش ٥٣ : ٤) .

وجاء فى يوحنا : « إنه كفارة عن خطايانا وليس عن خطايانا فقط بل عن خطايا العالم كله أيضاً » (١ يو ٢ : ٢) .

ومن أبرز الصور التى جاءت فى سفر الرؤيا صورة حمل الله . ولا عجب فى ذلك . صحيح أن ذبيحة المسيح قدمت مرة واحدة فقط على الصليب بطريقة دموية . وإنما هذه الذبيحة ستظل إلى الأبد . وإن القديسين فى السماء لا شىء عليهم يلزم التكفير عنه إلا أنهم محتاجون إلى أن يغمرهم المسيح بالفرح والمجد الدائم .

ودونك بعض النصوص من سفر الرؤيا الخاصة بحمل الله نختم بها

تأملنا فى ذبيحة الفادى الحبيب : الحمل المذبوح والقائم من بين الأموات والمنتصر الأكبر .

« ورأيت فإذا فى وسط العرش بين الحيوانات الأربعة فى وسط الشيوخ حمل قائم كأنه مذبوح له سبعة قرون وسبع أعين وهى أرواح الله السبعة المرسلة إلى الأرض كلها . فأتى وأخذ الكتاب من يمين الجالس على العرش . ولما أخذ الكتاب خرّت الحيوانات الأربعة والأربعة والعشرون شيخاً أمام الحمل وكان لكل منهم كنارة وجامات من ذهب ممتلئة بخوراً وهى صلوات القديسين وهم يسبحون تسبيحة جديدة قائلين مستحق أنت أن تأخذ الكتاب وتفض ختومه لأنك ذبحت وافتديتنا لله بدمك من بين كل قبيلة ولسان وشعب وأمة . وجعلتنا لإلهنا ملوكاً وكهنة ونحن سنملك على الأرض » (رؤيا ٥ : ٦ — ١٠) .

وليس غضب أشد من غضب الحمل على الذين احتقروا حبه الكبير . « وتوارت ملوك الأرض والعظماء والقواد والأغنياء والأقوياء وكل عبد وحر فى المغاور وتحت صخور الجبال . وهم يقولون للجبال والصخور اسقطى علينا واخفينا من وجه الجالس على العرش ومن غضب الحمل . لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم فمن يطيق الوقوف » . (رؤيا ٦ : ١٥ — ١٧) .

والخلاص لن يكون إلا بدم الحمل ولا سيما خلاص الشهداء .

« من هؤلاء اللابسون الحلل البيض ومن أين أتوا ؟ . . . هؤلاء هم الذين أتوا من الضيق الشديد وقد غسلوا حللهم وبيضوها بدم الحمل .

لذلك هم أمام عرش الله يعبدونه نهاراً وليلا فى هيكله . والجالس على العرش يحل فوقهم . فلا يجوعون بعد ولا يعطشون ولا تأخذهم الشمس ولا الحر البتة . لأن الحمل الذى فى وسط العرش يرعاهم ويرشدهم إلى ينابيع مياه الحياة ويمسح الله كل دمعة من عيونهم (رؤيا ٧ : ١٣ — ١٧) .

وإن مجد الجسم السرى واحد لا ينقسم : فمجد الرأس يتسرب إلى الأعضاء. ومجد الأعضاء يتسرب إلى الرأس. فالمسيح الرأس هو كل فى الكل

«وسمعت كصوت جمع كثير وكصوت مياه غزيرة وكصوت رعود شديدة قائلة : هللويا لأن الرب الإله القدير قد ملك . فلنفرح ونبتهج ونمجده لأن عرس الحمل قد حضر وعروسه قد هيأت نفسها . وأوتيت أن تلبس بزاً بهياً نقياً ؛ والبز هو تبريرات القديسين . وقال لى : اكتب : « طوبى للمدعوين إلى عشاء عرس الحمل » (رؤيا ١٩ : ٦ — ٩) .

« وجاءنى واحد من الملائكة السبعة الذين معهم الجامات السبعة . . وكلمنى قائلا : هلمّ فأريك العروس امرأة الحمل . وذهب بى فى الروح إلى جبل عظيم عال وأرانى المدينة المقدسة أورشليم نازلة من السماء من عند الله ولها مجد الله » . (رؤيا ٢١ : ٩ — ١١) .

« ولم أر فيها هيكلا لأن الرب الإله القدير والحمل هما هيكلها . ولا حاجة للمدينة إلى الشمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها لأن مجد الله أنارها ومصباحها الحمل » (رؤيا ٢١ : ٢٢ — ٢٣) .

الخاتمة

فى محبة الله وصبر المسيح

وليرشد الرب قلوبكم إلى محبة الله وصبر المسيح .

صحيح أن المسيح هو شمس البر (ملاخيا ٤ : ٢) مبدئ الإيمان ومتممه (عبر ١٢ : ٢) إلا أنه يلزم للخلاص أن نشترك فى استحقاقات آلام المسيح وموته .

فلن يحصل أحد على التبرير إلا إذا ولد الولادة الجديدة [١]

لقد قال القديس بولس : « إن الله هو الذى كان فى المسيح مصالحاً العالم مع نفسه » (١ كور ٥ : ١٩) ويعلن القديس توما بقوله : فأرجوك باسم المسيح وحباً به أن تتصالح مع الله .

وهنا يقول قائل : لماذا ؟ ما حاجتنا إلى المصالحة من جديد ؟ ألم يصالحنا الله بعد . صحيح أن الله قد بدأ فينا المصالحة ولكن لكى ننعم بالمصالحة يلزم أن نعمل شيئاً من عندنا يلزم أن نستحق هذه المصالحة . لأن الخلاص أمر شخصى .

فعلينا أن نشترك فى استحقاقات آلام المسيح وموته بالإيمان والأعمال (يع ٢ : ٢٢) لكى نزداد كمالا مثل القديسين . والكنيسة تدعونا باستمرار

---

(١) التبرير هو الانتقال من حالة الخطيئة الأصلية إلى حالة ابن الله بواسطة العماد . وقد يستعاض عن عماد الماء بعماد الشوق ولو ضمنياً . ولكن الأسرار السبعة إنما تستمد فاعليتها من الكلمة المتجسد . فهى علامات حسية وأداة لنعمة الفداء . والافخارستيا هى سر الأسرار هى سر وذبيحة تمنح نعمة المحبة اللاهوتية .

إلى النمو فى الإيمان والرجاء والمحبة . فإن ممارسة الفضائل اللاهوتية الثلاث تشركنا فى كنوز الفداء . فنندم على خطايانا ونستسلم للعناية الأبوية ونثق فى رحمته تحت علامة المحبة .

وإنه لمن الغرور إهمال أعمال التكفير كالصوم والصدقة والصلاة وممارسة أفعال الرحمة ، وأكبر دليل على المحبة احتمال المشقات الزمنية بأناة والصبر على الإهانات والمكاره على مثال السيد المسيح واتحاداً به (اقرأ كتاب الاقتداء بالمسيح الفصل ١٨ — ٢٠) .

وهذه الأعمال التكفيرية ثمرة المحبة الكاملة إن دلت على شيء فإنما تدل على الإرادة الصالحة . وكما يقول القديس بطرس : « أحبوا بعضكم بعضاً محبة شديدة فإن المحبة تستر جماً من الخطايا » (١ بط ٤ : ٨) وكما يقول القديس بولس : « احملوا بعضكم أثقال بعض وهكذا تتمون ناموس المسيح » (غلا ٦ : ٢) .

فكلما كان الحب طاهراً سخياً قل تفكير الإنسان فى ذاته واستحقاقاته وازدادت ثقته بالرحمة اللامتناهية مصدر كل عطية وكل غفران . وكلما نما الحب فى الثقة قلت ضرورة العقاب والتكفير .

ثم إن الخلاص الاستحقاقى لن يكون ذا طابع فردى . ولكنه ذا طابع جمعى . فلا مكان للفردية فى جسم المسيح السرى . فمن يخلص لن يخلص لوحده بل سيكون سبباً فى خلاص آخرين . ومن يهلك لن يهلك لوحده بل سيكون سبباً فى هلاك آخرين . وكلما زادت النفس فى القداسة فستكون الآلام التى تنالها ليس فقط للتطهير ولكن لفداء الآخرين .

لقد نلنا – نحن المسيحيين – هبتين : هبة : الإيمان بالمسيح وهبة التألم مع المسيح لخلاص العالم كما يقول رسول الأمم : « لأنه قد وهب لكم لا أن تؤمنوا بالمسيح وحسب بل أن تتألموا أيضاً من أجله » (فى ١ : ٢٩).

ولقد أعطى بولس الرسول المثل بقوله : « إنى أفرح الآن فى الآلام من أجلكم وأتمّ ما ينقص من شدائد المسيح فى جسمى لأجل جسده الذى هو الكنيسة . (كولوسى ١ : ٢٤) .

ولكن لن يستنتج من هذا النص أن آلام المسيح كانت غير كافية لأن دم المسيح يكفى لافتداء ألف عالم مثل عالمنا . وإنما الحقيقة هو أن المسيح ونحن جسم واحد سرى . هو الرأس ونحن الأعضاء . فأراد الله فى حكمته الأزلية أن يرتبط كل عضو من أعضاء الكنيسة بالرأس . فإذا ألمّ بالرأس ألم اضطربت له الأعضاء . وإذا حلت بالأعضاء شدة تألم لها الرأس . وهكذا قل عن الاستحقاق . فبين الرأس والأعضاء اتحاد . لا تفكك ولا انقسام .

ولما كانت استحقاقات المسيح غير متناهية فلكل عضو استحقاق يقابل درجة النعمة .

فآلام المسيح كاملة لا ينقصها شيء . فقول الرسول « أتمم ما ينقص من آلام المسيح » معناه أن على بولس أن يحمل فى جسده جزءاً من الآلام الشخصية يشترك فى استحقاقات المسيح الفادى حبًّا به « لبنيان جسد المسيح » . فعلى المسيح إذن أن يتألم فى شخص بولس وعليه أن يتألم فى كل عضو من أعضاء جسده وهكذا . أما القديسون على الأرض

فقد تألموا ويتألمون وسوف يتألمون من أجل الكنيسة إلى آخر الأيام .

ولقد قال أحد الكتاب : إن الصليب هو شعار الخلاص . وإننا سندرك يوماً ما بأنه لا الجنود ولا السياسة ولا العلماء ولا رجال الدين هم الذين يخلصون العالم إنما هم المتألمون الذين يتألمون فى المسيح ولأجل المسيح .

فطريق الصليب المبلل بالعرق والدم هو الطريق الوحيد الممتد أمام النفوس القوية، النفوس الفدائية ، التى ترغب بواسطة الألم والوجع أن تقهر الشر بالخير .

وهكذا يتحقق فى الإله المتجسد الألم والفرح أو قل : الفرح بالألم . فالمسيح هو الذى أعطى الحل العملى لأكبر سر شغل الفكر البشرى والحياة الإنسانية . فمن تعسر عليه حل هذه القضية فليتوجه إلى المسيح القائل : أنا هو الطريق والحق والحياة . الحياة الحقيقية خلاصة كل القيم البشرية والإلهية .

فياأخى المسيحى . سر حاملا صليبك خلف المسيح ولا تخف الصليب ولا تهجره فلقد حمل المسيح معلمك من قبل الصليب وسمر عليه . وكان العالم من تحته يصيح بأن « انزل من على الصليب إن كنت ابن الله ونحن حينئذ نؤمن بك » .

ولكن المسيح يأبى أن يسمع لصوت العالم الكاذب المضلل . وهو بذلك يعلمك أن تصم آذانك عند ما يهمس العالم فيها [illegible] انزل من على صليبك ومسيحيتك ونحن نؤمن بك

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٤

منشورات المعهد

المعادى

قائمة الكتب التى صدرت فى هذه المجموعة

١ — درب القداسة — تعريب : الأب جبرائيل عقيق اليسوعى

٢ — الحياة الكاثوليكية فى عالمنا الحاضر — تعريب : الأستاذ بطرس كساب

٣ — التجسد — تعريب : الأب لويس أبادير

٤ — القديس باسيليوس — تعريب : الأب جبرائيل عقيق اليسوعى

٥ — القديس غريغوريوس النزينزى — تعريب : الأب جبرائيل عقيق اليسوعى

٦ — القديس أثناسيوس — تعريب : الأب أنطون نحال

٧ — القديس قبريانوس الإفريقى — تعريب : الأب جبرائيل عقيق اليسوعى

٨ — الكنيسة أمام المشاكل الاجتماعية — تعريب : الأستاذ أنطون مطر

٩ — القديس يوحنا الذهبى الفم — تعريب : الأب رفائيل نخلة اليسوعى

١٠ — دعوة المسيحى — تعريب : الأب جبرائيل عقيق اليسوعى

١١ — الفداء — تعريب : الأب لويس أبادير